بطرس البستاني

معارك العرب

في الأندلس

دار مارون عبود

Bibliotheca Alexandrina
0132956

معارك العرب
في الأندلس

بطرس البستاني



في الأندلس

دار مارون عبود

جميع الحقوق محفوظة
لـ (دار مارون عبود)

١٩٨٧

يوم طليطلة

تلك المملكة التي أسسها بنو أمية في الأندلس، وحقق عبد الرحمن الناصر وحدتها، وبسط بغزواته الظافر سلطانها، صار أمرها إلى الضعف والانحلال بعد أن سطا عليها الحاجب المنصور وانشأ دولته العامرية في قلب دولتها، حاجراً على الخليفة هشام، مستقلاً دونه بالنهي والأمر. فاسقط هيبة الأمويين من نفوس أهل الأندلس، ووطد فيهم هيبته بما أوتي من فتوح وانتصارات.

وانتقل الملك من بعده إلى ابنه عبد الملك، ثم إلى ابنه الآخر عبد الرحمن، وكلاهما جرى على سنن أبيه في الحجر على الخليفة، والاستبداد بالسلطة والنفوذ. غير ان عبد الرحمن طمحت عينه إلى الخلافة، فطلب من هشام ان يوليه عهده، فلباه هشام ونزل عند رغبته لما هو عليه من الضعف والاستكانة. فنقم الأمويون

والقرشيون على الخليفة ، وخـــافوا أن يذهب الأمر من يدهم ، فخلعوه وبايعوا محمد بن هشام ، من حفدة عبد الرحمن الناصر ، فتلقب بالمهدي .

وكان عبد الرحمن غائباً في غزوة ، فلما بلغه الخبر قفل إلى قرطبة ، فارسل اليه المهدي من قبض عليه واحتز رأسه ، فانقرضت بموته الدولة العامرية . ولكن محمد بن هشام لم يستقر ملكه على حال لأنه جافى البرابرة لميلهم إلى العامريين ، فأتمروا به وبايعوا المستعين بالله سليمان بن الحكم . فـــانشق البيت الأموي بعضه على بعض ، ونشبت الفتنة بين الأميرين ، فمرة كان ينتصر المهدي فيهزم المستعين ، ومرة كان ينتصر المستعين ، فيلجأ المهدي إلى الملك الاسباني فيمده ويعيـــده إلى عرشه . ثم تم الأمر للمستعين ، فتغلب البربر على الاحكام وارتفع شأنهم .

وكان علي بن حمود الادريسي قد جاء من المغرب ، وأخـذ يدعو البربر لمبايعته ، معتمداً على نسبه الذي يرفعـه إلى علي بن أبي طالب وفاطمة بنت النبي . فبايعه البرابرة ، فقتل المستعين وتلقب بالنـــاصر . فلبثت الخلافة مدة من الزمن تتنقل بين الأمويين والحموديين حتى صارت للمعتضد بالله هشام بن محمد الأموي ، فملك برهة يسيرة ، ثم خانه وزراؤه وحرسه فخلعوه فهرب من قرطبة ، وانقطعت بـه الدولة الأموية . فصار الأمر بعـده إلى الوزير أبي

الحزم جَهْوَر فدعا جماعة العظماء إلى مشاركته في الحكم ليأمن معارضتهم ، فارتضوا بذلك ، ونشأ في قرطبة نوع من النظام الجمهوري ولكن من طبقة الاشراف .

وأما ولايات الأندلس فان رؤساء الطوائف فيها من بربر وعرب وموال اقتسموا خططها ، حتى كاد يكون على كل مدينة أمير مستقل فعرفوا بملوك الطوائف . ومثل هذا التفسخ العميم في جسم الدولة لا يدعو الى التفاؤل بقيام نظام سياسي ثابت تهنأ به تلك الامارات المستقلة ، وبعضها يتفاوت عن بعض في قوته واتساع أرضه ، فلا بد للقوي أن يطمع في ابتلاع الضعيف ليزداد به قوة ، فيجد أمامه أميراً منافساً ينازعه التوسع ، فيأخذ الضعيف تحت حمايته فيصبح تابعاً له . وتقع الحروب بين هؤلاء الأمراء فيشل واحدهم قوى الآخر ، وربما استنجد بعضهم على بعض الأمراءَ المسيحيين ، فيغتنم أولئك الفرصة ، فيهاجمون الأندلس يستولون على عواصمها ، ويخضعون ملوكها ، ويفرضون عليهم الجزية ، أو يجعلونهم عمالاً لهم . ولو لم يكن أمراء اسبانية هم أيضاً على اختلاف مستمر وتنازع فيما بينهم ، لما استطاع ملوك الطوائف أن يستقروا في الأندلس زمناً طويلاً ، مع ما هم عليه من تقسم وتخاذل .

وحاول ابن جَهْوَر صاحب قرطبة ، أن يجمع شتيت الأمراء

إلى دولته متوهماً ان وجوده في عاصمة الأمويين كافٍ لأن يحمل سائر الولايات على الاعتراف بسلطانه ، لانها تعودت من عهد بعيد أن تخضع لحكام قرطبة ، فكاتب الأمراء كبارهم وصغارهم يدعوهم الى طاعته ، فلم يحفلوا به ، ولا تكلفوا مؤونة الرد عليه ، فاضطر اخيراً الى ان يعترف باستقلالهم مكرهاً ، وفي رأسه خطة يريد تحقيقها ، وهي أن يوسع ملكه باغتصاب الامارات الصغيرة التي لا قبل لها بمقاومته وحماية استقلالها .

ووجه حملة إلى هُذَيل بن رزين صاحب السهلة ، فقهره واستولى على امارته . فالتجأ هذيل الى اسماعيل بن ذي النون أمير طليطلة ، فبادر هذا الى انجاده ليحول دون توسع ابن جهور ، فطرد القرطبيين من السهلة وأعادها الى صاحبها ، ثم ناصب قرطبة العداء ، فاصلاها حرباً طويلة ، تابعها من بعده ابنه المأمون .

وتوفي ابن جهور سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م) ، فانتقل الحكم من بعده الى ابنه محمد ، ولم يكن كابيه صاحب قوة وعزم ، وانما عرف بالتعقل والعدالة . فاراد أن يصرف هذه الحرب عنه بالمصالحة فاباها عليه أمير طليطلة وصاحب السهلة واضطراه الى القتال لطمع المأمون في الاستيلاء على قرطبة . إلا ان غارات فردينان الاول على طليطلة واثخانه فيها ، كان يكره صاحبها على مهادنة

ابن جهور حيناً بعد آخر . فان ملك جلّيقيّة (Galice) وقشتالة (Castille) ، لم يغرب عنه ضعف ملوك الطوائف وتناحرهم ، وان الفرصة سانحة لامتلاك بلدانهم وبسط سلطانهم عليهم .

فاخذ يهاجم الثغور الاسلامية ، ينتزع المدن والحصون من امرائها ، ويفرض عليهم الجزية ، فاستولى على قسم كبير من الأراضي البرتغالية ، أملاك ابن الأفطس صاحب بَطَلْيوس (Badajoz) ، وأغار على الدولة الهودية ، في سَرَقُسْطه (Saragosse) فاخضعها وألزم اميرها أن يؤدي له الجزية ويعينه على أمراء المسلمين . وأخضع أيضاً المأمون امير طليطلة وألزمه كما ألزم ابن هود . ثم غزا المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية ، فدحره وضرب عليه الجزية . فاصبح أعاظم الأمراء الاندلسيين يقدمون الطاعة لملك الجلالقة .

ولما صارت طليطلة في حماية فردينان نشط أميرها المأمون يحيى بن ذي النون إلى محاربة ابن جهور صاحب قرطبة مستعيناً بالقشتاليين ، وبإحلافه بني عامر حكام بَلَنْسية (Valence) ، وابن رزين صاحب السهلة . فأحس ابن جهور بالخطر المحدق بإمارته ، وانه عاجز عن مقاومة هؤلاء المجتمعين عليه ، فاستصرخ المعتضد ابن عباد صاحب اشبيلية ، وابن الأفطس أمير بطليوس ، داعياً

اياهما الى التحالف على طليطلة ، وكانت تهددهم جميعاً ، مؤكداً لهما اعترافه باستقلال دولتيهما . فبادرا الى محالفته ، وامداده بالعساكر . ولكن المامون ومن معه من الحلفاء استطاعوا ان يهزموا جيوش ابن جهور وانصاره ، وان يزحفوا الى قرطبة فيضربوا عليها الحصار الشديد . فاصبحت لا نجاة لها من السقوط الا اذا جاءها مدد من الخارج .

فعاد أميرها يستغيث بحليفه صاحب اشبيلية ، وكان المعتضد يطمع في الاستيلاء على قرطبة ليبسط بها حدود مملكته ، فرأى الفرصة سانحة لتحقيق رغائبه ، فأمدها بجيش عظيم يصحبه وزيره محمد بن عمار . فسار الجيش اليها ، وكشف الحصار عنها ، فخرج القرطبيون يتعقبون اعداءهم . وفيما هم يدافعونهم ويثخنون فيهم أخذ ابن عمار يحتل العاصمة ، ويمتلك حصونها . وكان اميرها محمد ابن جهور مريضاً ، فآلمه الخطب لا يستطيع له رداً ، فمات من قهره بعد أيام .

وعاد جيش قرطبة تخفق على راسه الوية النصر ، وقد هزم جيوش طليطلة وأحلافها شر هزيمة . ولم تكن خيانة أشبيلية لتخطر له في بال . فلما رأى عاصمته بأيدي حلفائه ، وأبوابها موصدة في وجهه ، وقف مدهوشاً حائراً أمام فاجعة لا يتوقعها . فدعاه الاشبيليون الى الاستسلام ، وكان على مقدمته عبد الملك

ابن الأمير محمد ، فراعه ان تنهار دولة أبيه ، فاندفع كالمجنون يقاتل مستميتاً ، حتى سقط عن فرسه مغمى عليه من ألم الجراح . فارتد الحارث بن الحكم قائد الجيش القرطبي بفرسانه الى مدينة الزهراء ، فلبث معتصماً بها مدة ، ثم جاءه نبأ موت الامير محمد وابنه عبد الملك ، فترك الزهراء ، وسار الى طليطلة فحالف عدوه ابن ذي النون ، لينتقم من ابن عباد حليفهم بالأمس .

وكانت طليطلة تؤدي الجزية ، كما ذكرنا ، لفردينان الأول ملك قشتالة ، فلما مات قطعها المأمون عن أولاده مستفيداً من اختلافهم ، فقد ثار واحدهم على الآخر ، ينازع نصيبه من ملك أبيه ، فوقعت بين الأخوة الثلاثة حروب أهلية متتابعة ، تم فيها النصر أخيراً لبكرهم شانجه (Sancho) ، فضم اليه جميع ممتلكات والده سنة ١٠٧٠ م ، وهرب أخوه غرسيه (Garcia) إلى اشبيلية مستجيراً بالمعتمد بن عباد ، وكان قد ولي الأمر بعد أبيه المعتضد .

ولجأ أخوه الثاني الفنس إلى طليطلة مستجيراً بالمأمون ، فأحسن وفادته وأنزله عنده عزيزاً مكرماً . إلا ان شانجه لم يعش طويلاً بعد استئثاره بالدولة ، فقد قتل غيلةً في كمين نصب له سنة ١٠٧٢ . ويقول المستشرق الالماني جوزف أشباخ ، ان

هذا الكمين حدث بسعي أختــه أوراكا أو أخيه الفنس ، أو كليهما معاً .

ولما انتهى الخبر إلى الفنس ، غادر طليطلة وجاء لاون فاعتلى عرشها ، نصيبه من أبيه ، ثم جمع اليه عرش قشتالة ، نصيب أخيـه شانجه ، وترك جليقيـة لأخيه غرسية يتمتع بها بضعة أشهر ، ثم انتزعها منه ، بعد أن اعتقله خدعة سنة ١٠٧٣ م ، وزجه مغلولاً في بعض الحصون ، فلبث طوال حياته سجينـــاً حتى مات .

ولم يغفل الفنس عن تعزيز سياسته في الأندلس الاسلاميـة ، وله من أمـير طليطلة ، صديق آواه يوم كان طريداً ضعيفاً ، فعقد حلفاً بينه وبين المأمون ، تعاهدا فيه على الصداقـة الخالصة والتعاون المشترك في ما يؤول إلى خير بلديهما ، فأصبح في وسع صاحب طليطلة أن ينتقم من عدوه ابن عبـــاد ويستولي على قرطبـة ، فوجه اليها جيشـاً من فرسان طليطلة ، والمرتزقـة القشتاليين ، معقود اللواء على الحارث بن الحكم ، قائد ابن جهور ، فهاجم الحارث عاصمة الأمويين حين غرة ، ودخلهـــا دون أن يلقى مقاومة ، على انه مـا تحول إلى الزهراء يريـد امتلاكهـا حتى تصدى له سراج الدولة ابن المعتمد بن عبـاد ، بحرس من المغـاربة ، يدافع عن قصور الملوك وذخـائرهم ، إلى أن سقط

في المعمعة صريعاً ، فانهزم الحرس ، وتم النصر لطليطلة (٤٦٨ هـ - ١٠٧٥ م) .

ودخل المأمون قرطبة ظافراً ، إلا انه لم يُمتع بانتصاره فقد توفي ، وكان كبير السن مريضاً . ويقول ابن خلدون ، انه مات مسموماً وحمل إلى طليطلة فدفن بها . وكان ابنه وولي عهده هشام قد مات قبله ، فأوصى بالملك لحفيده القادر بالله يحيى بن اسماعيل ، وكان هذا قاصراً ، فأقام له مجلس وصاية من صديقه الفنس السادس ، والحارث بن الحكم وبعض الولاة . ولكن هذه الثقة بحليفه لم تقع موضعها ، فملك قشتالة نسي ضيافة طليطلة وعطفها عليه ، ونسي صديقه المأمون يوم أمنه من خوف ، وغابت عنه العهود التي واثقه عليها ، وما أقسم له من الايمان على رعاية الأمير القاصر وحماية بلاده .

وأبت نفسه الا أن تشعر بشعور العرش والوطن ، فنجحت عنده مساعي ابن عمار وزير المعتمد ، فارتضى أن يحالف صاحب أشبيلية عدو الملك الذي هو وصي عليه ، وأن يعده بالمساعدة في توسعه ومحاربة الأمراء المسلمين . ورضي ابن عباد أن يساومه على أبناء ملته ، فيترك يده حرة تتصرف في طليطلة ، ثم يؤدي له الجزية صاغراً ، لا يجد بها غضاضة في سبيل مطامعه . وتروي الأخبار الاسبانية ، ان المعتمد بن عباد بعث ابنته « سيدة » إلى

بلاط الفنس تمكيناً للصداقة ، فاتخذها هذا حظية له . وكان أمراء اسبانية المسيحية يتسرون يومئذ بالنساء تشبهاً بامراء الأندلس المسلمين .

على ان الرواية العربية تنفي هذه التهمة عن أمير اشبيلية ، وتلقي نوراً على حقيقة المرأة المسلمة التي صارت في حوزة الملك الاسباني . فقد تمكن المستشرق لاوي بروفنسال من جلاء هذا الحادث الذي بقي غامضاً على المؤرخين المحدثين ، ينفيه بعضهم ، ويثبته بعضهم الآخر ، وذلك انه عثر سنة ١٩٣٤ على رواية عربية أصح من الرواية الاسبانية وأثبت ، أوردها ابن عذاري المراكشي في القسم الثالث من كتابه البيان المغرب ، وفيها يقول ان البعث الذي أرسله الفنس السادس سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) لمحاربة أبي الطاهر تميم أخي السلطان علي بن يوسف ، وكان يحاصر قلعة اقليش (Ucles) ، قتل فيه أمام اسوارها ابنه شانجه من زوجة المأمون بن عباد ، وكانت قد تنصرت مع نحو سبعة آلاف فارس .

فمن رواية ابن عذاري هذه يتبين ان الأميرة سيدة ليست بنت المعتمد بن عباد بل زوج ولده المأمون . وكان المأمون والياً على قرطبة من قبل أبيه ، فلما هاجمها المرابطون ، وعلى رأسهم القائد سير بن أبي بكر ، قتل المأمون في الموقعة ، ودخلها المرابطون ظافرين في ٢٦ آذار سنة ١٠٩١ (٣ صفر ٤٨٤ هـ) .

فالظاهر ان أرملة ابن المعتمد هربت مع ثلّة من فرسانها الى الفنس السادس محتمية به ، فتسرى بها وتنصرت مع جماعتها . ويؤيد ذلك دليل آخر وقع عليه المستشرق هنري بيريس، وهو عبارة عن فتيا كتبت في اواخر القرن الخامس عشر ، او اوائل القرن السادس عشر ، وصاحبها الفقيه المراكشي يحيى الونشريشي ، أفتى بها جواباً على سؤال : أيستطيع المسلم ان يغادر الأندلس الى افريقية اذا تيسر له ، أم يبقى فيها ليساعد اخوانه في الدين ؟

فكان جوابه بتحتيم الهجرة على من يستطيعها من المسلمين بعد استيلاء الاسبانيين على الأندلس ، محافظة على نسائهم ، لئلا تعقد زوجة بعضهم أو ابنته صلتها باعداء الدين ، فيقودها الأمر الى ترك الاسلام ، كما أصاب كنة المعتمد بن عباد وأولادها الذين تنصروا معها وهم أبناء المأمون .

وبينا ابن عباد يزحف بجيشه الى غرناطة ليخضع صاحبها ابن باديس ، إذا الفنس يتهيأ لغزو طليطلة واحتلالها (١٠٧٩ م) ، وكانت قد ثارت على أميرها القادر بن ذي النون لأكثاره من فرض الضرائب ، إرضاء لشهواته وترفه ، أو اشباعاً لمطامع ملك قشتالة . فجاء الفنس الى طليطلة متذرعاً بحجة الدفاع عن حليفه ، فعاث في ولايتها مخرباً قراها وحصونها ، ثم ارتد عنها عندما بلغه ان المنصور أمير بطليوس قادم لنجدتها . وعاد في العام التالي يفسد

في بسائطها ، ويستبد بقلاعها وزروعها . وما زال يوالي عليها الغارات في كل عام حتى أضعفها ، ونهك قواها ، ورماها بالضيق والفاقة . ثم دلف اليها في السنة السادسة يبغي العاصمة نفسها . فألقى عليها الحصار حتى منع عنها كل صلة ومدد . فراحت تستغيث بامير بطليوس ، فأمدها المتوكل بن الأفطس بجيش على رأسه ولده الفضل ، ولكنه لم يثبت أمام قوات الفنس الساحقة فانهزم مدحوراً ، ولم يبق للقادر أمل من النجاة .

وكان الجوع يهدد المدينة فخاف أن يثور عليه الشعب فيقتله ، فارسل الى الفنس يطلب الصلح على أن يؤدي الجزية ، ويكون تابعاً له ، فرفض الفنس مطالبه ، واشترط عليه أن يفتح أبواب المدينة ويسلمها اليه ، واعداً بأن يحافظ على أرواح المسلمين ومقتنياتهم ، وان يترك لهم المسجد الجامع يصلون فيه ، وأن لا يعارضهم في دينهم وشرائعهم . وخيَّرهم في البقاء او المهاجرة . فمن أحب البقاء يؤدي الجزية كما يؤديها المسيحيون في بلاد المسلمين . ومن آثر الهجرة يُسمح له بأن يحمل أمواله حيث يشاء . وضمن للقادر أن يدع له امارة بلنسية يتصرف فيها ، ولا يبخل عليه بالمساعدة اذا احتاج الى الدفاع عنها .

في الخامس والعشرين من ايار سنة ١٠٨٥ م دخل الفنس السادس ، ملك قشتالة ولاون وجليقية ، عاصمة القوط القديمة بابهة وجلال

منتزعاً من العرب احدى قواعد الأندلس الكبرى : طليطلة العاصية التي طالما تمردت على أمراء المسلمين ، فبذل عبد الرحمن الناصر ، والحاجب المنصور من بعده ، أعظم الجهود لاخضاعها وكسر شوكتها ، فكان يومها المشؤوم كارثةً على الأندلس العربية لأن قشتالة ، حين تملكتها ، أصبحت جاثمة على ضفتي نهر التاج ، ممدودة النظر الى ثغور المسلمين .

معركة الزلاقة

ما لبث المعتمد بن عباد، أمير اشبيلية ، ان ساوره الندم على محالفته الفنس السادس ملك قشتالة ومعاضدته له في انتزاع طليطلة من القادر بن ذي النون ، فان العاهل الاسباني ما كاد يحيط بنهر التاج من عدوتيه ، مستطيلاً على منافذ الأندلس العربية ، حتى نهد يفتتح قلاع الشاطئين وما حولها من المدن والضياع ، وراح يهدد قرطبة وماردة (Mérida) وبطليوس (Badajoz) ، فذعر المعتمد وتراءى له الخطر المحدق باملاكه ، فأرسل الى الفنس يستوقفه عن الفتح ، ويطلب منه أن يراعي المعـــاهدة التي بينهما فلا يتجاوز طليطلة .

فرد عليه الفنس بما عرف به من دهاء ومراوغة ، وهو انـه انما يملك ولاية طليطلة كلها شريكاً لصديقه القادر بن ذي النون

صاحب بلنسية . وكان المعتمد منصرفاً يومئذ الى محاربة ابن باديس صاحب غرناطة طامعاً في ضم هذه الامـــارة الى مملكته ، فأراد الفنس ان يظهر له حسن نيته من حيث يروم خداعه ، فأمده بخمس مائة فارس مدرع من الاسبانيين ، ليقاتلوا معه في غرناطة ، فأوجس المعتمد شراً ، وازعجته هذه النجدة التي لم يرغب فيها ، ولا شاقه قدومها ، ففضل أن يصالح ابن باديس على ان يستبقيها عنصراً خطراً في جيشه .

فلما عادت الى طليطلة دون ان تسفر بعثتها عن نتيجة ترضي ملك قشتالة ، كتب هذا الى المعتمد يطلب منه ان يتخلى له عن الحصون التي يمتلكها في ولاية طليطلة . فعظم الأمر على امـــير اشبيلية ، وأوجعه خطؤه وسوء سياسته ، وعلم ان لا سبيل الى كبح مطامع الفنس الا اذا قابل الشدة بالشدة . وهو وان يكن يحمل اليه الجزية كغيره من ملوك الطوائف ، الا انه كان أوسعهم دولة ، واقواهم سلطاناً ، فلماذا لا ينقض على الطاغية ، ويرفع عن مخنقه يداً قاسية القبض ؟ بل لمـــاذا لا يسعى الى دعوة الامراء المسلمين ان يتركوا الخلاف ويتحدوا لدرء الخطر المشترك ؟ فقد آن لهم ان يطهروا قلوبهم من أحقادها ، ويمد بعضهم الى بعض يده مصافياً ومعاوناً .

فالأمراء المسيحيون في اسبانيا أدركوا قبلهم ضرورة التعاضد

للتغلب عليهم واخراجهم من تلك الأرض الجميلة التي افتتحها أجدادهم ، فتناسوا ما بينهم من عداء قديم يفرقهم ويضعفهم ، فاجتمعت كلمة الفنس السادس وشانجه (Sancho) صاحب أرغون ونافار ، ورمند برنجه (Reymond Berenguer) أمير برشلونة ، فنهضوا نهضة واحدة لينقضوا على العدو الغريب متيمنين بتخاذله وانقسامه .

فمتى يدرك امراء الأندلس ما أدركه امراء اسبانية فيهبوا للدفاع عن أرضهم متضافرين لا متفسخين؟ أفما يخلق بالمعتمد بن عباد أن تدور هذه الفكرة في رأسه عندما جاءته رسل الفنس تستنزله عن حصونه في ولاية طليطلة ؟ فإذا به لا يتلكأ عن الرفض ، حاملاً نفسه على الخطة الصماء يريد فصلها ، وان ساءت مغبة الفصل . فأثار رفضه سخط العاهل القشتالي كما كان ينتظر ، فنقض الحلف وجاهره العداء ، ثم زحف بجيوشه يضرب في ولايات الأندلس فاستولى على قورية (Coria) من بني الأفطس ، وأغار على بسائط أشبيلية . فأثخن فيها وأحرق قراها وحقولها ، حتى بلغ جزيرة طريف ، فأدخل قوائم فرسه في البحر وقال : « هذا أقصى بلاد الأندلس قد وطئته » .

ثم ارتد إلى قلعة سرقسطة (Saragosse) يبتغي فتحها ، فألقى عليها حصاراً شديداً ، وأعمل الحديد والنار في ولايتها .

فدافعت عاصمة الدولة الهودية عن نفسها دفاع المستبسل المستميت . ولكن الاسبانيين ضيقوا الخناق عليها ، فراحت تستغيث بجاراتها المسلمة . وملوك الطوائف ضعاف متمزقون يبصرون الكارثة مقذوفة اليهم ، فتنخلع قلوبهم هلعاً ، ولا يستطيعون لها رداً . وهالهم ان تسقط سرقسطة بعد طليطلة ، قاعدة تلو قاعدة ، فماذا يكون مصير الأندلس إن لم يهبوا متساندين للنضال عنها ؟ فالمصيبة جامعة لا تعف عن واحد منهم ، ولا يؤمل بغير الاتحاد الحؤول دون استشرائها .

فتداعوا إلى مؤتمر يعقدونه في مملكة ابن عباد ، أعظمهم دولة ، فاجتمعوا في إشبيلية ، ثم في قرطبة ، واتفقوا على ضم جهودهم لدفع المغير وانقاذ سرقسطة . بيد انهم لم يكونوا واثقين بالظفر ، لما يعلمون من ضعف قواهم ازاء القوات الاسبانية القاهرة . فقرروا أن يستنجدوا يوسف بن تاشفين أمير المرابطين في عدوة افريقية ، وكان صاحب شوكة وسلطان ، يسيطر على شعب مخشوشن الأبدان يستطيب الحرب والكفاح ، لم ينغمس في الترف والملذات ، كأهل الأندلس ، لتخور عزائمه فيستكره القتال .

ولا يُتوقع أن يصم زعيم المرابطين اذنيه عن نداء إخوانه المسلمين ، لما به من حمية للدين ، ثم لما يضمر في نفسه من

مارب يهزه لفتح الأندلس والحاقها بافريقية ، ما دام امراؤهـــا ضعافاً متواكلين ، لا يملكون وسائل الدفاع لحمايتها . فمن الخير للمسلمين أن يدخلها المرابطون ، ويمنعوهـا أن تقع في قبضة المسيحيين .

بيـد ان يوسف بن تاشفين ، على رغبته الشديدة في الذود عن أبناء ملته ، وبسط سلطانه على الأندلس ، لم يسرع إلى تلبية ملوك الطوائف دون أن يتبصر بالأمر ويقلبـه على وجوهه ، فقد كان يجهل أرض الأندلس ، ولا يعرف إلا الشيء القليـل عن الأمراء المسيحيين . فأشفق أن يغرر بجيشه في بلاد غريبـــة ، قبل ان يحتاط للطوارىء ، ويتدبر عواقب مغامرته واقدامه ، فدعا اليه كاتبه عبد الرحمن بن أسبط الأندلسي ، وطلب منـه أن يشرح له أحوال إسبانيـــا ، وما يحول من العقبات دون التغلب عليها .

فذكر له الكاتب ، ان المسلمين هناك لا يعمرون إلا ثمن البلاد ، في حين ان النصارى يعمرون سبعة أثمانها . وشبه إسبانيا بسجن لمن دخلها ، لا يخرج منه إلا تحت حكم صاحبه . فـــإذا كان الأمير عاقداً نيته على العبور اليها ، فيحسن به أن يجيب المعتمد ابن عباد ، بانه لا يمكنه الجواز اليـه ، إلا إذا تنـازل له عن الجزيرة الخضراء ، ليجعلهـــا مقر أجناده وأثقاله . ويريد

عبد الرحن بذلك أن يبقى سيده متصلاً بـافريقية ، حتى إذا أخفق في حملته لا تسد عليـه طريق الرجعة اليها . فاستصوب الأمير هذا الرأي ، فكتب به إلى صاحب إشبيلية ، ولبث ينتظر الجواب ويتأهب للقتال .

وكان الفنس في تلك الأثناء ، قد ثقلت وطأته على الولايات الأندلسية ، فلقي ابن هود أشد العناء في الدفـاع عن سرقسطة ، وما سلمت من التخريب بسائط اشبيلية وحصونها . وبات الخطر يهدد المتوكل بن الافطس أمير بطليوس . فرأى المعتمد بن عبـاد ان يستوقف شر الملك الاسباني باداء الجزية والنزول له عن الحصون المتاخمة ، فارسل اليه يسأله الهـدنة ، ويبدي رغبته في تسليم الحصون ، وتقديم الاتاوة .

فأوفد الفنس بعثة على رأسها أحد قواده ، ومعه يهودي يقال له ابن شاليب ، ماهر في نقد الدراهم الزائفة . فنزلوا في ظـاهر المدينة ، فوجه المعتمد اليهم المال مع جماعة من وجوه دولته ، فطلب ابن شاليب أن ينظر فيه قبل تسلمه . فاستاء الوفـد الاشبيلي ، وعدوا ذلك اهانة لهم ولاميرهم . فاحتدم الجدال بينهم وبين البعثة الاسبانية ، فأصر اليهودي على طلبه ، فاقترح القائد السفير أن يقدم ، ابن عباد ، بدلاً من المال سفناً حربيـة . فعاد المندوبون بالمال إلى سيدهم ، وأخـبروه بما حدث ، فتلظى

حنقاً حتى خرج عن دائرة اعتداله ، فأمر بقتـــل السفير ومن معه ، وكانوا ثلاثمائة ، ولم ينج منهم غير ثلاثـــة تمكنوا من الفرار . ويروي صاحب « نفح الطيب » عن ابن اللبـــانة ، شاعر المعتمد ، ان الامير لم يقتـل من البعثة غير اليهودي ، فقد أمر بصلبه . واما المسيحيون فانه اكتفى بأن يزجهم في السجن .

ويقول ابو عبدالله الحميري ، في « الروض المعطار » ان الفنس طلب زيادة على الضريبة والحصون ، ان تـأتي إمرأته إلى قصور الزهراء فتنزل فيها الى ان تلد ، لان القسيسين أشاروا عليها بأن تتردد على الجامع الكبير في قرطبة لتتبرك مدة حملها بزيارة الكنيسة التي كانت بجانبه الغربي قبل بنائه ، فرفض ابن عباد هذا الطلب ، فراجعه ابن شاليب واغلظ له القول ، حتى أغضبه فأمر بصلبه منكوساً .

ثم فكر بما يجر عليه هذا الحادث من وخيم المغبة ، فملك الجلالقة لا يصبر عن الاثئار لبعثته ، وقد اتسع الخرق بينهما فما يمكن استرضاؤه الا بشروط لا تطاق . فوطن النيـــة على استدعاء المرابطين ثانية ، والتنازل لزعيمهم عن الجزيرة الخضراء . فدعا ابنه الرشيد ولي عهده ، وافضى اليه بمـــا يعتزم عليه . فمانع الرشيد وحذر والده خطر المرابطين اذا دخلوا الاندلس

وامتلكوا قاعدة فيها .

فأجابه المعتمد بكلمته المأثورة : « رعي الجمال خيرٌ من رعي الخنازير » ، اي انه يفضل ان يكون مأكولاً ليوسف بن تاشفين يرعى جماله في الصحراء ، على ان يكون اسيراً عند الفنس ، يرعى خنازيره في قشتالة .

وتلقى امير المرابطين دعوة ابن عبــاد ، وكان ينتظرها ، فحشد جيشه في سبتة ، ثم اجتاز المضيق الى الجزيرة الخضراء ، في شهر ربيع الآخر ٤٧٩ هـ (آب ١٠٨٦ م) ، فوجد امــير اشبيلية قد خف لاستقباله في مائة فارس ووجوه اصحابه . فتقدم المعتمد يريد تقبيل يده اظهاراً لطاعته ، فمنعه يوسف ، فتصافحا وتعانقا كصديقين ، لا كتابع ومتبوع . ثم تسلم الزعيم الافريقي الجزيرة ليتصرف فيها ، فاحتل بجيشه قلعتهــا ، واهتم بتعزيز حصونها ، وتنظيم حاميتها ، واعداد المؤن والذخائر فيها لتكون له موئلاً يفزع اليه اذا حالفه النصر في حملته.

فلما أتم تجهيزها شخص الى اشبيلية فلبث ثمانية ايام يؤهب جيوشه منتظراً في الوقت نفسه قدوم الامراء الاندلسيين بقواتهم لينضموا اليه . حتى اذا اكتملت عدة الجيوش المتحالفة ، زحفت من اشبيلية تجوز املاك امير بطليوس ، فسار فرسان المرابطين في الطليعــة وعدتهم عشرة آلاف يقودهم داود بن عائشة ،

ثم الجيش الاندلسي ، وعلى رأسه المعتمد ، ثم الجيش الصحراوي يتقدمه يوسف بن تاشفين ، وبينه وبين جيش ابن عباد ، يوم واحد ، حتى بلغوا بطليوس ، فنزلوا بظاهرها ، فخرج اليهم اميرها المتوكل ابن الافطس ، فلقيهم بما يجب من الضيافات والاقوات .

وكان الفنس لا يزال يحاصر سرقسطة ، ويرميها بالحملة اثر الحملة وهي تدافع عن نفسها يائسة ، فلما عرف بمجيء المرابطين وزحفهم اليه مع القوات الاندلسية ، خاف على طليطلة والممتلكات الجنوبية ان يقع فيها العدو ، فرفع الحصار عن العاصمة الهودية ، وارتد إلى طليطلة يحشد العساكر من قشتالة ولاون وجليقية (Galice) وبسكونية (Biscaya) وأشتوريش (Asturias) ، ومن الأراضي الاسلامية التي افتتحها وأخضعها ، وجاءته النجدات المتطوعة من ولايات فرنسة الجنوبية طامعة في المغانم أو مجاهدة في سبيل الدين . ودعا إلى معونته حليفيه شانجه أمير أرغون ونافار ، ورمند أمير برشلونة .

فلبيا دعوته وانضما اليه بقواتها . فاجتمع لديه جيش عظيم ، تختلف الروايات الاسلامية في تقديره ، فمنها ما يبالغ فيه فيجعله مائتي الف راجل ، وثمانين الف فارس . ومنها ما يذهب إلى الاعتدال فلا يرتفع به عن الثمانين الفاً ، منهم أربعون الفاً من

ذوي الدروع الثقيلة . ويقدره ابن الأثير بخمسين الف مقاتل . ويجعله ابن خلكان اربعين الف فارس غير ما انضم اليه من الأتباع . ولا تتفق الروايات الاسلامية على عدد جيوش المسلمين ، فمنها ما يرفعه إلى ثمانية وأربعين الفاً ، نصفهم من الأندلسيين ، ونصفهم الآخر من المرابطين . ومنها ما يهبط به إلى العشرين الفاً . ولكنها تجمع كلها على أن عدد المسلمين كان أقل من عدد المسيحيين .

وأما الروايات المسيحية ، فإنها لا تشير إلى عدد الجيوش النصرانية ، وإنما تذهب إلى تقدير الجيوش الاسلامية بزهاء مائة الف ، أو تظهر عجزها عن احصائها ، فتقول انها كانت كالجراد المنتشر . ويفترض المستشرق الالماني جوزف أشباخ عدداً متساوياً للفريقين ، فيقدر ان كل واحد منهما كان يجمع نحو مائة وثلاثين الفاً إلى مائة وخمسين .

ونحن إذا نظرنا الى الولايات المتسعة في مملكة الفنس ، وما يُحتمل استمداده من القوات الحليفة والمتطوعة ، لا نستكثر خروجه بمقدار مائة الف لقتال عدو يشعر بخطره بعد اجتماع الافريقيين والاندلسيين عليه . وكذلك لا يُعقل ان يوسف بن تاشفين يعبر الى الاندلس بأقل من أربعين الى خمسين الفاً ، وهو مقدم على الحرب ، في بلاد غريبة منيعة ، رأينا كاتبه عبد الرحمن

يجتهد في تحذيره منها . واذا كانت فرسانه عشرة آلاف كما ذكرنا ، فلا ينبغي أن يقل عدد الرجّالة عن الثلاثين أو الأربعين الفاً . ثم ان أمراء الأندلس في تحالفهم على الكارثة المشتركة لا يستغرب أن يبلغ حشدهم خمسين الفاً على أقل تعديل ليتخلصوا من عدو مخيف طالما هدد وجودهم ، وقد سنحت لهم الآن فرصة تمنّوها طويلاً حتى حصلوا عليها .

فان تكن العساكر الصحراوية والأندلسية ، دون العساكر الاسبانية في مجموعها بحسب رواية المؤرخين المسلمين ، فلا يمكن التسليم بأنها تقل عنها كثيراً ، فكلا الجيشين قوي متأهب أحسن الأهبة ، والموقف خطر رهيب ، والمصير غامض لا ينجلي إلا في اللقاء .

وجاءت الأنباء ان الفنس زاحف بقواته الى بطليوس . فنشط القواد المسلمون الى ترتيب صفوفهم ومعسكراتهم ، وخطب يوسف بن تاشفين وابن عباد في أصحابها ، وقام الفقهاء يحضّونهم على الثبات ، ويحذرونهم من الفشل . ثم جاءت الطلائع تخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم ، وهو يوم الأربعاء . فخرج المسلمون مبكرين وأخذوا مصافّهم . وأقبلت الجيوش الاسبانية بخيلها ورجلها تملأ الفضاء ، فنزلت على بضعة أميال من بطليوس ، في سهل تتخلله الغابات يُعرف باسم الزلاّقة

(Sacralias) ، وعسكرت تجاهها الكتائب الأندلسية يفصل بينهما نهر صغير .

أما يوسف بن تاشفين فقد جعل معسكره وراء أكمة عالية ، في عزلة عن معسكر الأندلسيين . فلما أخذت العساكر الاسبانية محلاتها ، أرسل زعيم المرابطين الى الفنس يعرض عليه الدخول في الاسلام ، أو تادية الجزية ، او مباشرة القتال كما هي السنّة . ومن جملة ما قاله في الكتاب بحسب رواية نفح الطيب : « بلغنا يا ادفنش انك دعوت الى الاجتماع بنا ، وتمنيت أن يكون لك سفن تعبر فيها البحر الينا . فقد عبرنا اليك ، وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال . »

فلما أطلع الفنس على مضمون الكتاب ، رماه الى الأرض مغضباً ، وقال للرسول : « اذهب فقل لمولاك اننا سنلتقي في ساحة الحرب . »

ولم يشأ العاهل الاسباني ان يباشر القتال ، قبل أن يلجأ الى بعض خدائعه المعهودة ، فبات ليلته لا يحرك ساكناً ، والمسلمون يحسبون ان المعركة ناشبة حتماً غداة الخميس . فهبّوا في الصباح يستعدون لخوضها ، واذا رسول من الفنس يحمل كتاباً الى يوسف ابن تاشفين يقول فيه : « غداً يوم الجمعة وهو عيدكم ، والأحد

عيدنا ، فليكن لقاؤنا بينهما يوم السبت . » وفي رواية اخرى انه استثنى يوم السبت أيضاً ، لانه عيد اليهود ، وفي المعسكرين كثير منهم ، واختار للقاء يوم الاثنين .

فاستحسن الأمير المغربي هذا التأجيل وخاله عدلاً ، فوافق عليه ، ولم يعلم ان الفنس يرمي به الى تعطيل أهبة المسلمين ليأخذهم يوم الجمعة على غرة وهم غير مستعدين . ولكن المعتمد بن عباد كان قد بلا مكايد حليفه بالأمس ، وذاق سموم أكاذيبه ، فلم يطمئن فؤاده الى هذا الاقتراح المريب ، واستشعر الحيلة من خلاله ، فبث عيونه في الليل يتجسسون حركات الاسبانيين ، فعادوا اليه يخبرونه بانهم اشرفوا على محلة الفنس ، فسمعوا ضوضاء الجيوش واضطراب الاسلحة . فبعث الى السلطان يوسف يطلعه على الامر ويستحث نصرته . وكان الفنس قد جعل جيشه قسمين ، احدهما يقوده غرسيه ، والثاني يتقدم جناحيه شانجه ورمند ويقوم هو في قلبه . فعند السحر ، حمل جيش غرسيه اولاً يريد مباغتة الاندلسيين ، واذا داود بن عائشة يصدمه بفرسان المرابطين ، ويكسر من حدة هجومه .

ولم يكن الاسبانيون ينتظرون هذه المفاجأة فانكفؤوا الى خط دفاعهم الثاني ، ثم اصلحوا امرهم وعاودوا الكرة على المرابطين . وحمل معهم الفنس بسائر الجيش ، يخترق فرسانه المدرعون بالحديد

الخطوط الاندلسية ، وقد ارتفع الى السماء صياح الاسبانيين وقرع طبولهم . وكانت الحملة راعبة عنيفة ، فلم يصبر لها امراء الاندلس ، فتراجعوا مفلولين ثم ركنوا الى الفرار ، فطاردهم المسيحيون الى اسوار بطليوس . ولم يثبت في الميدان الا فرسان اشبيلية واميرهم المعتمد بن عباد ، والفرسان المرابطون ، وقائدهم داود بن عائشة ، فانهم لبثوا يجاهدون الاعداء صابرين على عض السلاح ، مستهينين بالموت ، لا يطلبون النجاة .

وأظهر ابن عباد من ضروب البسالة ما يملأ النفس اعجاباً ، فقد احاط به الاسبانيون من كل جهة ، فانكشف بعض اصحابه ، وفيهم ابنه عبدالله ، فأخذ يقتحم الصفوف معرضاً نفسه للوبال ، فشجّ رأسه ، وجرحت يمنى يديه ، وطعن في احد جانبيه ، وعقرت تحته ثلاثة افراس ، وهو يجالد مستأسداً لا يترك المعمعة ، ولو لم ينفّس عنه داود بن عائشة بعض الشيء لكانت عليه المحنة اشد واقسى .

فقد جاهد القائدان بفرسانهما أروع جهاد ، حتى لم يبق لهما امل من الدفاع ، فارتدّا باصحابهما الى الاسوار ملتحقين بامراء الاندلس الذين انهزموا في بدء المعركة ، واسلموا محلاتهم ، فاستفاد منها الاعداء في انقضاضهم وتطويق الذين صبروا وصابروا من المسلمين . وتتبعهم الفنس بالمطاردة ليجهز عليهم ، فتدفقت

وراءهم فرسان اسبانية تضرب في اقفائهم ، وبارق النصر يلوح لها مشعاً لمّاعاً .

وظن الفنس واهماً ان الكسرة وقعت على جيوش المسلمين باجمعها ، وان يوسف بن تاشفين والصحراويين في جملة المندحرين ، ولكن ساء فاله ، فبينما هو يطارد المنهزمين ، واصحابه يتباشرون بالظفر ، إذا بالصرخة تتعالى وراءه في معسكره ، وقرع الطبول يتجاوب في الهواء . وكان زعيم المرابطين قد خرج بعساكره من وراء الاكمة ، وأمر قائده أبا بكر ، ان يخف بقوة من البربر لمعونة المعتمد بن عباد والاندلسيين . وسار هو بفيالقه الضخمة الى معسكر الاسبانيين ، فأناخ عليه ، فأوقع بحاميته ، وانتهب ما فيها من الذخائر والسلاح . وضجت أصوات طبوله ، فاستكّت لها آذان الفنس ورجاله .

وجاءه النبأ المشئوم وهو في نشوة الظفر يتعقب الاندلسيين ، ويبعثر البرابرة الذين جاؤوا لنجدتهم . فترك المطاردة ، وارتد بجيوشه الى المعسكر لينقذه من أيدي المرابطين . وابصر يوسف بن تاشفين عنف الكرة ، فحاد عنها خارجاً لهم عن المحلة ، ثم كر عليهم فأخرجهم . ثم كروا عليه فأخرجوه . وتوالت الكرات والمعسكر ينتقل من يد الى يد . وكان امير المرابطين يمر بين مسافات المسلمين يحرضهم ، ويقوي نفوسهم على الجهاد والصبر

ويقول : « يا معشر المسلمين ، اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين ، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة ، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة . » فقاتل المسلمون في ذلك اليوم قتال من يطلب الشهادة ويرغب في الموت . وقاتل المسيحيون أصدق قتال ، وصبروا أعظم الصبر ، وفي نفوسهم ما في نفوس أعدائهم من الحمية للدين والوطن . فتساقطت ألوف الضحايا من الفريقين حتى غصت بهم ساحة القتال ، وخاضت الخيل في برك من الدماء ، وسقط فيها جماعة فغرقوا في دم قتلاهم . وصارت الأرض ترتجف من وقع حوافر الجياد ، وانعقد العجاج فاظلم النهار .

وكان المعتمد بن عباد ، وداود بن عائشة قد جمعا شمل فرسانها بعد ان كف الفنس عن المطاردة ، فارتدا بهم في أثر المسيحيين ، وارتد بعدهما المنهزمون من أمراء الأندلس وقد اشتدت عزائمهم حين تنسموا ريح النصر ، فأخذ الاسبانيون من الجانبين ، فتناهبتهم شفار السيوف تحصدهم من الأمام والوراء ، وهم لا يفترون عن المكافحة غير مصدقين انهم خسروا المعركة ، يكرون على معسكرهم يستعيدونه من المرابطين ، ثم ينتزعه المرابطون من أيديهم ، ثم يرجع اليهم ، وهم في الوقت نفسه يقاومون الأندلسيين في مؤخرتهم ، حتى دنت ساعة الغروب ، فكره يوسف بن تاشفين أن يأتي الظلام ويفصل بينه وبينهم على غير نتيجة ، فأمر رجاله السودان ، فترجلوا عن مطاياهم وعدتهم أربعة آلاف ، بايديهم

السيوف والدرق ومزاريق الزان ، فاقتحموا خيول الاسبانيين ، وأعملوا الطعن في بطونها وصدورها ، فازورّت بفرسانها وخامت عن المعترك من ألم الجراح .

وحملت جيوش المسلمين حملة صادقة ، فانهزم الاسبانيون متخلين عن معسكرهم لا يأملون العودة اليه ، فاستحرّ القتل فيهم ، فلم يفلت منهم غير طويل العمر . وأبى الملك الفنس أن يهرب ، فلبث يجمع صفوفه ويقاتل مستبسلاً مخاطراً بحياته ، فلحقه أحد السودان ، فلصق به وطعنه بخنجر فأثبته في فخذه ، وهتك حلق درعه ، فبادر اليه خمس مائة من فرسانه الدارعين فانقذوه ، ولكنه رفض أن يترك ساحة القتال ، وآثر الموت على ان يرضى بالهزيمة . فساروا به على كره منه إلى تل ٍ مما يلي المعسكر ، ثم انحدروا إلى قورية يسترهم الظلام . .

وخسر الاسبانيون أكثر جيشهم في هذه الموقعة . وكذلك كانت خسارة المسلمين جسيمة ، لأن الضائقة لزمتهم معظم النهار . بيد انهم وجدوا تعزية في النصر البهيج ، فأقاموا مهرجان الفرح مساء يومهم ، وبعث المعتمد بن عباد حمامة إلى عاصمته تحمل رسالة البشرى لولده الرشيد ، فقرئت على الناس في المسجد الجامع ، واحتفلت اشبيلية بالنصر في اليوم نفسه على ما بينها وبين بطليوس من البعد . وبات الجيش ليلته في ميدان القتال ، حتى تنفس

الصبح ، فجمعت الوف من رؤوس الاسبانيين على شكل مأذنة ، وقام فوقها المؤذن ينادي : حيّ على الفلاح !

وانتهت معركة الزلاقه بيوم واحـد ، الجمعة ٢٣ كانون الأول ١٠٨٦ م ، فدوّنت حدثاً عظيماً في تاريخ الاسلام ، فهي وان تكن فتحت أبواب الأندلس لمرابطي افريقية ، لقد أثبتت فيها أقـدام المسلمين مدى أربعة قرون .

رذريق والمرابطون

عاد أمير المسلمين من معركة الزلاقة يجرر ذيـل المجد ومن حوله ملوك الطوائف ، يسعون اليه بتحايا الشكر وعرفـــان الجميل ، وهم بين سكرة النفس الغائبة ، وصحوة الفكر الحاضر ، تهزّهم اهازيج العساكر المنتصرة ، فيستسلمون للغبطة والتيمّن ، ثم يلوح لهم وجـــه يوسف بن تاشفين ، في عبوسه واستعلاء نظراته ، ويسمعون أصوات المرابطين ترتفع على أصوات الجنود الأندلسية ، فترتعد الغبطـة في قلوبهم ، ويستحيل اليمن طيرة وشؤمـاً .

يشوقهم أن يترشفوا غرة الجو مشرقاً صافياً ، بعد أن تلاشت عاصفة الاسبان ، وتمزقت سحائبهم في الشمال . فتروعهم غمـامة مطلة من الجنوب ، كثيفة سوداء .

ينظرون إلى زعيم الملثمين يسير في المقدمة عظيماً بقوته وبطشه ، عظيماً بورعه وتقشفه ، فلا يملكون النفس عن الاعجاب بامير مسلم ، أنقذ الأندلس المسلمة ، وأبعد عنها خطر المسيحية ، فيودون لو ينطق بكلمة تبدد أوهامهم وتبعث الطمأنينة في الصدور ، لينقلب هذا الاعجاب حباً ومودة . ولكنه صامت لا يحدثهم بشيء عن إماراتهم ومصايرها ، فإذا هم ، بكرهٍ منهم يخافونه على بلادهم ، اكثر مما يخافون الفنس والقشتاليين .

ولم يكن خوفهم في غير محله ، فان سلطان مراكش قد عقد نيته على البقاء في الجزيرة ليشرف من كثب على الدويلات العربية ، ويتابع جهاد الاسبانيين ورد غاراتهم . ولعله ابتدأ منذ اليوم يعتبر الأندلس ، ولاية من أعمال افريقية ، لما رأى من عجز امرائها وضعفهم وتخاذلهم .

غير انه فكر في شيء وفكرت الأقدار في شيء آخر . ففيما هو يتأهب للقيام بغارة جديدة ، جاءه نعي ولده أبي بكر سير ، وكان قد أقامه نائباً عنه في مراكش يدير أمورها ، فاضطر إلى الاسراع في العودة لتنظيم حكومته . إلاّ انه ترك الجيش الصحراوي في الأندلس برئاسة قائده سير بن أبي بكر ، فاستأنس ملوك الطوائف بعض الشيء ، وسرهم أن يبتعد الظافر

عن أرضهم ، منصرفاً إلى العناية بشؤون مملكته الافريقية ، فاستأنف بعضهم الغارات على الامارات الاسبانية والبرتغالية يعاونهم جيش المرابطين ، فكانوا ينجحون في مكان ويخفقون في مكان آخر .

ولم يخطر لهم في بال ان الفنس السادس ستقوم له قائمة بعد موقعة الزلاقة ، وقد خسر فيها نخبة فرسانه ومعظم جيشه وعتاده . ويقيناً لو أصابت هذه الكارثة رجلاً غيره لحطمت عزيمته وقضت على مساعيه . ولكنها اصابت جباراً مريداً لا يسهل على الاحداث تدويخه واقعاد هماته . فانه ما انفك ، منذ هزيمته المشؤومة ، يستنفر الاسبانيين والفرنسيين ، حتى تم له بعد عام حشد جيش عظيم في عدته وعدده ، فخرج به سنة ١٠٨٧ م ، مغيراً على الأندلس ، مخرّباً فيها ، مفتتحاً بعض مدائنها ، مهدداً ملوكها ولا سيا المعتمد بن عباد .

وعبثاً حاول هؤلاء الامراء ان يدفعوا البلاء عن ديارهم ، وهم على تحاسدهم ، وطمع قويّهم في ضعيفهم ، لا يخلصون النية للتعاون المشترك ، يتحالف منهم فريق ، ويتخلف فريق آخر . ولا يتلكأ بعضهم ان يكيد لبعض ، فكأن يوم الزلاقة أنساهم ما جر عليهم تفسخهم بالامس ، وكأن ُبعد يوسف بن تاشفين أغفلهم عما يهددهم في الغد . وكان المعتمد اشدهم طموحاً إلى بسط

سلطانه والاستئثار بالنفوذ لاعتداده عليهم بالقـوة واتساع الملك . فحدثته نفسه بخطة خرقاء لم يحسب حساباً لنتائجهـا . فرأى ان يعبر المضيق الى المغرب ويشرح لامير المسلمين احوال الاندلس وقعود أمرائها عن حمايتها ، راجياً منه ان يوليه قيادة العساكر الصحراوية ، ليستطيع بهـا جمع الولايات وضم اشتاتهـا ، ومن ثم مقاومة الامراء المسيحيين . وفاته ان سلطان مراكش ينتظر هذه الفرصة لتحقيق رغائبه في الاستيلاء على الاندلس وجعلهـا من أعمال دولته .

فعاد من عنده خائباً نادماً ، لان الزعيم المرابطي يريد ان يحمل بنفسه عبء مجاهدة الاسبانيين ، ولعـله تلقى رسائل من علماء الاندلس يستنجدونـه لانقاذها ؛ فنشط يجمع العساكر ويدرّبها ، حتى تهيأ له جحفل كثيف ، فعبر به بحر الزقـاق إلى الجزيرة الخضراء ، في حـزيران ١٠٨٨ م ، (ربيع الاول ٤٨١ هـ) ، وما وكده الامراء المسيحيون وحدهم ، بل ملوك الطوائف قبلهم .

على انه لم يجد من الحكمة ان ينـاصبهم العداء فوراً ، فباشر الحرب اولاً مع الاسبانيين دون ان يدعوهم إلى مساعدته ، ثم ارتد إلى غرناطة فاحتلها واعتقل صاحبها عبدالله بن بُلكين بن باديس ، ونفاه إلى اغمات قرب مراكش ، متهماً إياه بانه حليف لالفنس .

ورأى ان الجيش المرابطي لا يكفي للقيام بحركات واسعة يزيـل بها ملوك الطوائف ، فارتد إلى سبتة واخذ يحشد العساكر ويجيزها إلى قائده سير بن ابي بكر في غرناطـة حتى اجتمعت له قوات جرارة ، فسيّرها في اربع جهات لقتال المعتمد بن عباد ، والمعتصم ابن صمادح صاحب المرية (Alméria) .

وكان المعتمد يتوقع غارة المرابطين على مملكته ، ويستعد لها ، فهبّ إلى مدافعتهم ، يخوض المعارك بنفسه ، ويبلي احسن البلاء . ولكن ما حيلته وجيشه ضعيف امام الفيالق الصحراوية الطاحنة ، فمن الجنون ان يغرر به ويتابع حرباً نتيجتها خاسرة . يعرف كل ذلك ، ويعرف ايضاً ان الحرب لا مهرب منها الا اذا تنازل عن عرشه ليوسف بن تاشفين . وكيف له بالتنازل عنه ، وهو به ضنين ، يفضل أن تخرّق الرماح جثمانه وان يموت الجيش في مكانه على ان يخفض الرأس لابن الصحراء !

ترى بمن يستغيث ، والى من يفزع ؟ ايدعو ملوك الطوائف لنصرته ، وفيهم الحاسد الشامت ، من يسرّ بنكبته ، او الخائف المرتعش يشتغل بتحصين ارضه ولا يجرؤ ان يبادي الملثمـين بالعدوان ؟ وما ابعد الامل عند ملوك الطوائف ، وما اقربه عند الفنس عدوّه اليوم ، وحليفه بالامس ، فلماذا لا يهرع اليه بندائه ، وهو يشعر شعوره بخطر الغزاة الغرباء ؟ وما كاد صوت الاستغاثة

يبلغ عاهل قشتالة ، حتى بادر إلى نجدته باربعين الف راجل ، وعشرين الف فارس يقودهم الكونت غوميز (Gomez) ، فالتقاهم المرابطون عند قرظبة فهزموهم بعد معركة دامية .

ولبث المعتمد يدافع عن اشبيلية دفاع اليائس المستميت ، باذلاً آخر ما لديه من القوى ، والمرابطون ياخذونه من كل جهة إلى ان دخلوها عنوة في ايلول سنة ١٠٩١ م (رجب ٤٨٤ هـ) ، فاعتقلوه وساقوه وأسرته إلى اغمات . وسقطت المرية على اثر اشبيلية وزال عنها ملك المعتصم بن صمادح . ثم أناخ المرابطون على مُرسية (Murcie) ، وافتتحوا دانية (Dénia) وشاطبة (Jativa) ، وما زالوا يتقدمون من مدينة إلى مدينة حتى انتهوا إلى بلنسية ، وهي يومئذ في حكم القادر بن ذي النون .. وكان الفنس السادس قد اقطعه هذه الامارة بدلاً من طليطلة التي انتزعها منه ، وجعله تحت حمايته يتقاضاه الجزية ويذود عنه إذا أعتديَ عليه .

فلما اغار المرابطون على بلنسية انضمت قوة من النصارى إلى المسلمين تدافع معهم عنها ممتنعين بحصونها . ولكن المهاجمين استطاعوا أن ياخذوها في غير مشقة ، لأن القاضي أبا أحمد بن جحّاف المعافري فتح لهم أبوابها ، وأمدهم بجماعة من أصحابه تسهل لهم امتلاكها ، لطمعه في الامارة وكرهه للقادر بن ذي النون

صنيعة الاسبانيين .

وكافا المرابطون القاضي فجعلوه والياً على بلنسية من قبل سلطان مراكش ، فما كان منه إلا ان بادر إلى الانتقام من القادر ، فما زال يبحث عنه ويطارده حتى تمكن منه فقتله ، ثم انتهب قصره واستولى على أمواله ، فزالت بموته دولة ذي النون (١٠٩٢ م ـ ٤٨٥ هـ) .

على ان سقوط بلنسية في أيدي المرابطين لا يعد خسارة للنونيين وحدهم ، بل هو خسارة لالفنس السادس أيضاً ، وبالتالي ، خسارة كبيرة للفارس الاسباني ، السيد رذريق (Rodrigue le Cid) . فقد كان ملك قشتالة يعتبر بلنسية امارة تابعة له ، ولا ينظر بارتياح إلى تقدم الافريقيين في الأواسط الشرقية من الاندلس ، حيث ينبسط نفوذه . وقد رأيناه يبادر إلى نجدة المعتمد بن عباد لكي يستوقف زحف المرابطين ، ويقضي على حركاتهم في الجنوب قبل أن تتسع وتنتشر ، فلم ينجح في مسعاته فاضطر جيشه الى التقهقر عن قرطبة مدحوراً . وراحت العساكر الصحراوية توغل في الجانب الشرقي ، ناهضة من مدينة إلى مدينة حتى استولت على اكثر القواعد الحصينة ، هازمة أمامها القوى الأندلسية واعوانها الاسبانيين ، ومن بينهم الكونت رذريق وفرسانه الأشداء .

وكان هذا الفارس لا يقل حماسة عن أميره الفنس في مقاومة المرابطين ومصابرتهم ، ولا يقل عنه غضباً ، لسقوط الولايات الشرقية لما له من النفوذ فيها ، ولا سيا بلنسية التي بسط عليها سيادته وجعلها محط آماله ومدار مطامعه ، سواء أرضي مليكه أم سخط ، فإنه من أولئك الأبطال المغامرين الذين يتعشقون الشهرة ، ولا ينكصون عن طلبها مهما يقم دونها من الأهوال . وقد كان الفنس ناقماً عليه حتى انه نفاه عن قشتالة ، وازال ما به من نعمة سابقة .

فما زاده النفي والاضطهاد إلا عزماً واقداماً . فبنى مجده بذكائه وحد سيفه على كره من العاهل القشتالي ، وباءت بالخيبة كل محاولة قام بها الفنس لخذلانه واخراج بلنسية من يده . وجدير بنا أن نلم بطرف من حياة السيد وأخلاقه قبل ان نتحدث عن مواقعه في بلنسية مع المرابطين ، لتنجلي للقراء تلك الشخصية التي بلغت من سيرورة الذكر ما لم يبلغه الفنس السادس نفسه . فقد تغنى ببطولتها الشعراء والمنشدون ، ونسجت حولها الروايات والأساطير ، فكانت غذاء للادب الاسباني في القرون الوسطى ، وغذاء من بعده للشاعر الفرنسي كورناي في مسرحيته الخالدة « السيد » .

هذا الفارس القشتالي يمثل فروسية عصره أصدق تمثيل

بفضائلها وعيوبها ، أوتي من القوة البدنية والشجاعة والاقدام واستهانة بالموت ما يصح أن توسم به عصور البطولة . وساعده ذكاؤه وقوة إرادته على التبصر في الأمور وتصريفهـا ، والنظر في عواقبها .

كانت فروسيته تقترن بالتدين وحرارة الايمان ، يصوم ويصلي ، ويعنى بالحفلات الدينية ، ويقدم الهدايا للكنائس والأديرة . فهو على خلاف ما تصوره المستشرق دوزي ، إذ جعـله لا دين له ولا شرع . فان روح الدين كانت اكبر محرك لنفوس الفرسان في عصره ،. بسبب الحروب الصليبية التي امتـدت من الغرب إلى الشرق . ولعل دوزي نفى عنه العقيدة المسيحية لكثرة ما اقترف من الجرائم والفظائع التي يستنكرها الدين وينهى عنها ، او لعله يرمي إلى تقلبه في السياسة الوطنية ، فحيناً يحارب المسلمين مجاهداً ، وحيناً يضع سيفه في خدمتهم لينصرهم على المسيحيين ، وفي كلا الحالين لو عاد المستشرق بالسيد الى عصره لما وجده غريباً عنه . فاحراق القاضي بن جحاف حياً ، والتمثيل بالأسرى او القاؤهم الى الكلاب الضارية ، كلها أعمال وحشية بحد ذاتها ، تنفر منها النفس الانسانية في صفائها .

إلا ان رذريق لم ينفرد بها عن غيره ، فانما هي من عيوب فروسية العصر ، وتاريخ الاندلس حافـل بامثالها وبابشع منها ،

وتقترن على الغالب باحوال خاصة كدافع الانتقام ، او الحاجة إلى الارهاب . ولا يصح في ما عدا ذلك ، ان تجرد السيد من الشعور الانساني ، والعاطفة المهذبة تجريداً تاماً ، وفي أخباره ما لا يسمح لنا بهذا الحكم الجازم ، كخبره مع المرأة النفساء ، ذكره لويس برتران في كتابه « تاريخ اسبانية » ، وهو ان السيد ، عندما نفاه الملك سار بفرسانه وخدمه هائماً بين قشتالة وسرقسطة . فذات يوم أمر بأن تقوض الخيام للرحيل ، فلما كادت تطوى وتحمل حتى سمع بعض رجاله يقولون ، ان زوجة طاهيه قد وضعت في تلك الساعة . فسألهم حالاً : كم تلزم سيدات قشتالة السرير عادة بعد الولادة ؟ فأعلموه . فقال : إذن نبقى هنا طول هذه المدة ، فلتنصب الخيام .

وبقي السيد في مكانه لا يتحرك منه حتى نهضت زوجة الطاهي من فراشها ، مع ان الخطر كان محدقاً به ، لانتشار الأعداء وتسربهم في تلك الأصقاع .

وكذلك تقلبه في السياسة الوطنية لم يكن غريباً في نوعه عندهم . فان تاريخ اسبانية يحدثنا عن كثير من الفرسان المسيحيين والمسلمين كانوا يفعلون فعله ، مدفوعين بحب المال والشهرة ، او بشهوة الانتقام ، أو روح المغامرات ، الى محاربة أبناء ملتهم في صفوف أعدائهم ، والكونت رذريق فيه جشع كبير الى المال والشهرة

وكانت شهوة الانتقام تحفزه الى طلب المعالي ، بعدما فقد حظوته عند الفنس وأبعد عن بلده .

وهو الى ذلك لا تنقصه روح المغـامرات ، واسبانية يومئذ في حالتها السياسية المضطربة ، وما يهددها من الخطر الشامل لتصارم ولاياتها ، وتباغض حكامها ، تفرض على الامراء المسلمين والمسيحيين ان يجتمعوا في مواطن مختلفة ، متحالفين مع ما بينهم من حروب ازلية وعداء قديم ، على ما في هذا التحالف من تكافؤ او غـير تكافؤ ، كما حالفت بلنسية وسرقسطة قشتالة ، وكانتا في الوقت نفسه تؤديان لها الجزية ، وتعتمدان على مساعدتها اذا نزل بها عدو مغير . فغير عجيب ان يقاتل السيد في صفوف حلفاء قومه ، وان كان العدو الذي يقاتله من المسيحيين ، او ان يقاتل في غير صفوف حلفائه وهو حاقد على اميره ، مغامر باسل يطمح الى المجد ويطمع في المال ، ولديه جيش خليط من المرتزقة ، لا يقوم على المسيحيين وحدهم ، بل فيه عدد عظيم من الفرسان المسلمين . واذا عدنا الى اخباره اول حياته نجده ، مع حبه للمال وسعيه الى جمعه لا يجرد حسامه الا في سبيل اميره .

ولد هذا الفارس في قرية فيفار (Vivar) ، على مقربـة من برغش (Burgos) نحو سنة ١٠٤٥ م ، يكتنفه النسب الكريم من ناحيـة أبيه دياغو او دياز (Diego ou Diaz) ، سليل كالفو

(Calvo) بعض كبار القضاة في قشتالة . ثم من ناحية امه التي تنتمي الى اسرة كبيرة في اشتوريش (Asturias) ، وكان والدها صاحب اقطاعات في الوادي الجوفي [1] ؛ أي وادي دويرُه (Duero) . والظاهر ان دياغو توفي والغلام في نحو الثالثة عشرة من سنيه ، على حد تقدير لاوي بروفنسال ، اذ يجعل وفاته سنة ١٠٥٨ م ، فورث رذريق املاكه .

ثم اتصل بالدون شانجه (Sancho) بعدما قسم فردينان مملكته بين اولاده الثلاثة ، فاتيح له ان يتادب بادب القصر شان ابناء الامراء ؛ وقلده شانجه رتبة الفروسية ، فحارب معه سنة ١٠٦٣ م مناصراً المقتدر بن هود ملك سرقسطه على الارغونيين ؛ فكانت اولى معاركه بجانب المسلمين على المسيحيين .

فلما نشب الخلاف بين الاخوة الثلاثة ، وقام الواحد منهم ينازع الآخر نصيبه من ملك ابيه ، وقعت بينهم حروب اهلية . فقاتل الفتى رذريق تحت لواء شانجه ، حتى تم النصر لاميره ؛ فكافاه على بلائه بمنصب رفيع في القصر ، واناط به قيادة الجيش ؛ وصاحبها يعرف بصاحب العلَم (Alferez) ؛ ولُقب بالكمبيادور (Campéador) اي القائد الاعلى ، او رئيس الغزوات ؛ على رأي

---

(١) الجوفي : اي الشمال في اصطلاح المغربيين .

لاوي بروفنسال .

ويسميه المقري في نفح الطيب القنبطور ، ويعرف ايضاً عند مؤرخي العرب بصاحب الفحص[1] . والمراد به الرئيس الموكول اليه امر الغارات على فحوص الاعداء ، وانتساف زروعها . غير ان حياته في القصر لم يكن من شأنها ان تمنحه الشهرة التي اعدتها له الاقدار مع كثرة الحروب التي شهدها في عهد مليكه .

ثم اغتيل شانجه في حصار زمورة (Zamora) الثائرة عليه سنة ١٠٧٢ ، واتهم بقتله اخوه الفنس ، وكان هذا قد نفاه من شانجه الى طليطلة ، فرجع الى مملكته لاون واعتلى عرشها ، واراد ان يضم اليه قشتالة نصيب اخيه المقتول ، فتمنع القشتاليون عن مبايعته او يقسم على براءته من دم اخيه . فرضي الفنس ، وذهب في جماعة من اشراف قشتالة الى كنيسة شانتا غادية (Gadia) في برغش لتأدية اليمين ، فلم يجرؤ احد منهم على تحليفـه سوى الكونت رذريق ، فحقد عليه ، ولكنه كان يتقي جانبه لما يعلم من بطشه ودهائه . فآثر ان يأخذه باللين على ان يجاهره العداء ، وان تكن

---

(١) الفحص : بالمغرب من ارض الاندلس مواضع عدة تسمى الفحص . قال ياقوت : « وسألت بعض اهل الاندلس ما تعنون به ؟ فقال : كل موضع يُسكن سهلاً كان او جبلاً بشرط ان يزرع نسميه فحصاً ، ثم صار علماً لعدة مواضع . اما في لغة العرب ، فالفحص شدة الطلب خلال كل شيء . »

هذه الظواهر لا تخدع الفارس الذكي ، فتزيل من نفسه الريبة بعاهله الجديد . فقد رأى خيراً له أن يتخلى عن منصبه في الجيش ويترك القصر دون ان يخرج عن طاعة الفنس ، او يقطع صلة التابع بالمتبوع .

وكان لالفنس ابنة عم يقال لها الدونا ليانا دياز ، وتعرف بشيانة . وهي بنت دياغو بن رذريق كونت اوفيادو ، وحفيدة الفنس الخامس ملك لاون . فشاء ان يزوجها برذريق ليجمع بها أشراف لاون وقشتالة ، ويزيل ما بين البلدين من العداء .

فقبل الفارس القشتالي عروسه اللاونية من يد مليكه بعامل السياسة ، لا بدافع الحب الذي يصوره كورناي في مسرحيته ، ويجعل منه صراعاً عنيفاً بين العاطفة والواجب في نفس البطل العاشق . ثم في نفس معشوقته . فوالد شيانة لم يلطم والد السيد . وهذا لقي حتفه من عهد بعيد . ولا رذريق اضطر الى قتل والد شيانة . وانما تم الزواج بينهما في جو هادىء . لا تلوح فيه بارقة وجد . ولا عاصفة التياع . وهذا لا يمنع ان يكون الزوجان تبادلا المودة والاخلاص مع طول الالفة . كما يحصل عادة بين الرجل والمرأة . اذا اقترنا وقلباهما خليان من حب او كره .

غير ان هذا الزواج لم يُعد الى رذريق سابق حظوته في

القصر ، فما لبث ان رجع وشيانة إلى قريته بيغار لا يخرج منها إلا إذا دعاه اميره لبعض المهات .

وكان الفنس يوفد كل سنة بعثة الى طليطلة وأشبيلية لاستئداء الجزية من الدولتين الاسلاميتين ، فاوفد السيد الى اشبيلية في اواخر سنة ١٠٧٩ م لياخذ الجزية من صاحبها المعتمد بن عباد ، فلما بلغها رأى الحرب دائرة بينهـا وبين الغرناطيين . وعلى غرناطة يومئذ الأمير عبدالله بن باديس بن زيري ، وقد امده الفنس بنجدة من الفرسان الاسبانيين تنصره على المعتمد ، لأنه لم يكن مطمئن النفس اليه لانبساط ملكه بين ملوك الطوائف ، وطمعه في التوسع ؟ وكان قائد الحملة الاسبانية الكونت غرسيه اوردونه ، عدو رذريق ومنافسه ، فخاض السيد المعركة بجانب الاشبيليين محتجاً بانهم حلفاء مليكه الفنس .

فهزم العساكر الغرناطية ، وأسر جماعة من الاشراف المسيحيين بينهم غرسيه ، ولم يطلق سراحهم إلا بعد ثلاثة أيام فقفلوا إلى بلادهم مذلولين منكسي الرؤوس ، وتقاضى رذريق الجزية من ابن عباد ، وحملها الى قشتالة سنة ١٠٨٠ م .

فغير عجيب ان يكون له من غرسيه واعوانه خصوم يناصبونه العداء ، ويكايدونه في السر والعلانية حتى اوغروا صدر الفنس عليه ، فبات يتحين الفرص للنيل منه ، واضعاف شأنه . فاتفق أن

أغار السيد على طليطلة دون استئذان سيده ، فأثخن وأوجع ، وعاد بالأسرى والغنائم ، فثار ثائر الأشراف القشتاليين لاستقلاله بالأمر ، وصغى اليهم الفنس ، وبدا له أن يطرده من أراضي قشتالة ، ففُتحت له أبواب المجد في منفاه .

ولم يسلم سبب طرده من الالتباس والخلاف فيه ، فمنهم من يرجعه إلى حقد الملك عليه من أجل اليمين التي لقنه اياها في كنيسة برغش ، ومنهم من يعود به الى غاراته على طليطلة وايقاعه بحلفاء عاهله ، أو الى طمعه في الثروة ، وانه أخذ مالاً كثيراً من المعتمد ابن عباد . ويتفق لويس برتران والمستشرق الالماني جوزف اشباخ على القول بان فارساً ممتازاً عظيم الكبرياء كثير المطامع مثل السيد لا يرضى ان يظل مغموراً في كنف ملك يبخسه حقه ويغار منه . فهو لا بد أن يختار هذا النفي بنفسه ، ويقصد اليه قصداً إلمّ يفرض عليه ، ليسعى وراء الشهرة التي يتعشقها ، ويبني عليها قصور أحلامه .

ومهما يكن من شيء ، فإن رذريق هجر موطنه نحو سنة ١٠٨١ م ، مبقياً زوجه وأولاده في بيفار ، وسار برجاله إلى برشلونة ، عارضاً سيفه على أميرها رامون بيرنغر الثاني (Berenguer) فلم يجد عنده قبولاً ، فتركه وولى وجهه شطر سرقسطه ، فاتصل بصاحبها المقتدر بن هود ، وكان حليفاً لألفنس

فأحسن وفادته .

وتوفي المقتدر في السنة نفسها ، فـــانتقل الحكم من بعده الى ولديه المؤتمن والمنذر ، فولى الأول سرقسطة وأعمـــالها ، والثاني دانيــة وطرطوشة (Tortosa) ولاردة (Lérida) ، ثم نشب الخلاف بينهما ، فاستنجد المنذر كونت برشلونة وملك أرغون مستنصراً بهما على أخيه فـامداه بالعساكر . فخرج اليهم رذريق بفرسانه وفرسان المؤتمن فاشتبك وإياهم في معارك دامية كتب له النصر فيهـا ، فانهزموا أمامه ، فطاردهم واناخ على بـلادهم فدمر واتلف ونشر الروع بـين المسيحيين والمسلمين . ويروى انـه أسر يومذاك بيرنغر كونت برشلونة ، وكان هذا قد نذر دمـه ، فأبى الا ان يقابله بالاحسان ، معاملة الفارس الشريف لصنوه ، فأطلق سراحه دون أن يطلب منه الفداء . ثم رجع الى سرقسطة تظلله رايات المجد والظفر فاستقبلته المدينـة هـاتفة له ، وأنزله المؤتمن منزل الكرامة ، وصار المسلمون حلفـــاؤه يلقبونه بالسيد من ذلك الحين . غير ان لاوي بروفنسال يقول ان لقب السيد ليس له ذكر في الروايات المسيحية القديمة ولا في الروايات العربية ، وانما يذكر لقب القنبطور . وفي ذلك مـــا فيه الشبهة كما لا يخفى .

ولم يطل حكم المؤتمن فـانه توفي سنة ١٠٨٥ م فخلفه ابنــه

المستعين مترسماً خطة ابيه في إكرام السيد والاعتماد على سيفه وخبرته ، الا ان الفارس القشتالي لم يهجر بلاده ليكون تابعاً لأمير غير أميره بل ليحقق أحلامه ، واي أحلام تراوده سوى الامارة والسلطان ؟ فرمى بعينيه إلى الولايات المجاورة يتفحصها فوجد بلنسية أقربها منالاً وأحكمها موقعاً . فالقادر بن ذي النون ضعيف لا قبل له بالدفاع عنها ، فانقض عليها بفرسانه فافتتحها ، والظاهر انه كان على اتفاق مع المستعين ، ولم يشأ ان يخلع القادر بل استبقاه مراعاة للمسلمين ، ووضعه تحت حمايته .

وأرسل في الوقت نفسه إلى الفنس السادس يبايعه على الطاعة ، لئلا يثير حفيظته ، وبلنسية معدودة في جملة الامارات الخاضعة لمملكته .

ومن الطبيعي أن لا يرتاح الفنس إلى عمل السيد واستبداده بامارة حليفه وتابعه ، وهو ناقم على هذا الفارس الطريد فكيف يأمن جانبه اذا قويت شوكته في بلنسية وما جاورها ؟ وقد كان حقيقاً به ان يرميه بحملة تاديبية تنزع بلنسية من يده ، وتحرر القادر من سلطانه ، الا ان الأحداث الخطيرة التي طرأت على الأندلس اضطرته الى التغاضي عنه ، ذلك ان المرابطين أخذوا يتقدمون في الولايات الجنوبية والشرقية ناثرين تيجان ملوك الطوائف ، مغيرين على الأراضي الاسبانية . فالخطر الداهم

أعظم من أن يحمل الملك القشتالي على التفكير في محاربة السيد ومعاقبته ، وقد تكون الاستفادة من سيفه في مثل هذه الأحوال أولى وأنفع .

ولم يخطىء الفنس في حدسه ونظره الى الأمور ، فان السيد نفسه كان يشعر شعور مليكه ، وتساوره المخاوف من زحف المرابطين وانتصاراتهم الصاعقة ، فإذا بهذا الشريد المغامر يصبح بطلاً قومياً لا هم له الا ان يرد الأعداء الغرباء عن بلاده ويحول دون تجدد النكبات التي شهدتها اسبانيا المسيحية في أوائل الفتح . ومن هنا تبتدىء حياته الوطنية اللامعة تتغنى بذكرها وتخلدها القصائد والأناشيد .

دخل المرابطون بلنسية ، والسيد غائب عنها ، فارتد اليها عندما بلغه الخبر ، وهو مصمم على استرجاعها ، مهما كلفه خطبها ، ليجعل منها قلعة حصينة في وجه الملثمين تمنعهم من التوغل في الولايات الاسبانية ، فنشط الى تحصين القلاع الجبلية المحيطة بها وتعزيز حامياتها .

ودعا الى محالفته الأمراء المسلمين في السهلة وشاطبة ودانية ومربيطر (Murviedro) فلبوا الدعوة لما يضمرون من الكره للمرابطين . ثم ضرب الحصار على المدينة بجيش لهام من النصارى والمسلمين ، فصبرت بلنسية عليه مدة طويلة تقاوم الجوع يائسة ،

لأن المرابطين الذين جاؤوا لنجدتها هزموا وشتت شملهم . فثار الشعب أخيراً على القاضي جعفر بن جحّاف حاكمهـــا الجديد وأجبروه على التسليم ، فلم يجد منـــاصاً من مفاوضة رذريق على شروط تضمن السلامة له ولأسرته ولسكان المدينة أجمع . فقبـل السيد هذه الشروط ، وفتحت له بلنسية أبوابهـــا في أيار سنة ١٠٩٤ م ، فدخلها دون أن يتعرض لأحـد بأذى . وخطب فيهم فقال :

« جعلت لكم يومي الاثنين والخميس موعدين لسماع مطالبكم . فمن كان له حاجة معجلة ، فبوسعه أن يدخل عليّ متى شاء ، فاسمع له ، لأني لن أحتجب عنـكم كما كان يحتجب ساداتـكم مع النساء للشراب والسماع . وأنا أقضي بنفسي في أموركم ، فأكون لكم حامياً وصديقاً ، وقاضياً ووزيراً . وإذا شكا الي أحدكم الآخر ، حكمت بالعدل بين الخصمين . »

ويقول ابن بسام ان القنبطـور ترك ابن جحاف على القضاء نحواً من عام ، ثم اعتقله وأهل بيتـــه وقرابته ، وجعل يطالبهم بذخيرة القادر بن ذي النون ، فانكر القاضي ان يكون لديه شيء منها ، فهدده السيد بالقتل ان كان كاذباً ، وهو يعلم انه قد استولى عليها بعد مقتل القادر ، وفي جملتها عقد زبيدة « حُمَة العقرب » وكان من الزمرد والماس والياقوت ، قيل انه كان لزبيدة زوج هارون

الرشيد ، فنهب يوم مقتل الأمين ، وانتقل إلى الخليفة الأموي في الأندلس عبد الرحمن الثاني .

ثم صار بعد سقوط الدولة الأموية في قرطبة إلى الدولة النونية ، فحمله القادر من طليطلة إلى بلنسية ، فلما قتل استحوذ عليه القاضي ابن جحاف ، ثم امتلكه السيد ، وبقي في حوزته حتى مات ، فاخذته شيانة معها إلى قشتالة . ويقول ميناندز بيدال ان عقد حمة العقرب كان بخزانة قشتالة في القرن الخامس عشر ، فأثار شهوة الشريف الفارو اولينا ، فعدا عليه . وعثر الملك جوان الثاني على هذه الحلية سنة ١٤٥٣ م تحت عمود من أعمدة القصر الملكي في مدريد ثم ضاع أثرها ، فلم يسمع بذكرها بعد هذا التاريخ .

وقيل ان ابن جحاف عرض على السيد هدية من ذخائره ، فردها عليه ، ولم يأخذها منه . فأوجس القاضي شراً . ثم أمره أن يبين في كتاب ما لديه من المال والحلى والجواهر ، وان لا يخفي شيئاً عنه . فوعده بذلك ، ولكنه أخلف الوعد ، وأبقى الذخيرة مطمورة في الأرض . ويقول المقري صاحب نفح الطيب : « فاتفق انها وجدت عند القاضي ، فأمر به فأحرق حياً . »

على ان الذخيرة لم تكن السبب الوحيد الذي حمل رذريق على قتل أبي أحمد بن جحاف ، فهناك أسباب أخرى جعلته يحقد عليه ، ويُرصد له الشر ، منها اغتياله لتابعه القادر بن ذي النون ، وإقفاله

المدينة في وجهه ، وحجزه عنه ما أودع من الحنطة فيها ، واستنجاده المرابطين عليه ، وتلونه في المفاوضات حيناً معه ، وحيناً معهم ، حتى أدى الأمر إلى حصار طويل ، أخره عن دخول بلنسية ، وأضر بسكانها ضرراً بليغاً ، لما أصابهم من الجوع الغاشم حتى أكلوا جلود الحيوانات .

ويقول ابن بسام ان رذريق كان قد هم باحراق زوجة ابن جحاف وبنيه معه ، فضج المسلمون والمسيحيون معاً ، ورغبوا في ترك الأطفال والعيال ، فأجاب رذريق سؤلهم بعد جهد شديد . وأضرمت نار عظيمة في ساحة بلنسية كانت تلفح الوجوه على مسافة بعيدة ، وجيء بالقاضي ابي أحمد يوسف في قيوده ، وقد احتفر له حفرة ، فأدخل فيها إلى حُجزته ، أي وسطه ومعقد ازاره ، وسوي التراب حوله ، وضمت النار نحوه . فلما دنت منه ولفحت وجهه قال : بسم الله الرحمن الرحيم ! وقبض على أقباسها ، وضمها إلى جسده ، ليقصّر مدة عذابه .

ثم اختار رذريق لبون بن عبد العزيز والياً من قبله على بلنسية ليستأنس به المسلمون . وأقام هو في قصر القادر يعنى باصلاح إمارته وتدبير شؤونها ، منصرفاً اليها بكل قواه . قال فيه أحد المؤرخين انه أحبها كعشيقة له . ومع ذلك لم يغفل عن امرأته وأولاده ، فاستقدمهم من بيفار . ولبث نحو خمس

سنوات يقاوم المرابطين ، ويمنع تقدمهم في إمـــارته ، فما ينالون منها منالاً ، ولا يستطيعون الايغال في الولايات الاسبانيـة ، حتى أصابته الحمى وثقلت عليه الجراح القديمة . وبلغه ، وهو على هـذه الحال ، مقتلُ ولده دياغو في جيش الفنس ، وانهزام فرسانة أمـام ابن عائشة قـــائد المرابطين في سنة ١٠٩٧ ، فـآلمه الخطب ، واشتد عليه المرض ، حتى نهك قواه ، واودى بحيـــاته في تموز سنة ١٠٩٩ .

وكانت الجيوش الصحراوية لا تنفـك تهاجم المدينـة ، فأبت الأميرة شيمانة أن تتخلى عن تراث بعلها ، فظلت تدافع المرابطين زهاء ثلاث سنوات ، وقائدهم مزدلي يشد الخناق على بلنسية . فلما ضاق ذرعها بعثت اسقف المدينة جيروم ذي بيروغورد تستنجـد بابن عمها الفنس ، فخف اليها ملبياً . ورفع المرابطون الحصار عن بلنسية عندما عرفوا بمجيئه . فدخلها دون أن يلقى مقاومة . ولكنه وجد ان الدفاع عنها يرهق جيشه على غير جدوى ، فلم يشأ ان يبقيه فيها عرضة لهجمات الملثمين .

فأمر شيمانة بالجلاء عنها ، فاطاعت مكرهة ، وعادت برجالهـا مع الجيش إلى قشتالة ، حاملة رفات زوجهـــا رذريق (أيار سنة ١١٠٢ م) ، بعدما انتُهبت بلنسية وأحرقت ، فدخلها مزدلي ، وهي على تلك الحال .

وبموت السيد تطوى صفحة جليلة من تاريخ الأندلس العربية ، فان ولاياتها أصبحت خاضعة لمراكش ، تابعة ليوسف بن تاشفين الزعيم المرابطي ، بعد نضال طويل اشترك فيه امراؤها وامراء اسبانية المسيحية ، ليطردوا الغريب من بلادهم ، فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً .

يوم سرقسطة

ما كان طبيعياً ان تظل سرقسطة امارة اسلامية مع تطرفها في الشمال الشرقي على نهر ابره (Ebre) ، وقد سقطت قبلها طليطلة في أيدي الاسبانيين ، فجعلت نهر التاج فاصلاً بينها وبين الولايات الاندلسية المسلمة ، حتى اصبحت في شبه عزلة عن ابناء جلدتها ، تستنجد في ضنكها ملوك الطوائف وتستنفر امير المرابطين .

وقد أخذها الفنس السادس بالحصار أخذاً شديداً ، فما رده عنها إلا نبأ جاءه عن يوسف بن تاشفين وأمراء الأندلس بانهم زاحفون اليه في جموع جرارة ، فبادر نحوهم قبل أن يبلغوا طليطلة ، والتقاهم في بطليوس ، حيث دارت عليه معركة الزلاقة بشؤم الطالع (١٠٨٩ م) ، فانكفأ منهزماً الى عاصمته في فلول من جيشه المكسور ، فاستطاعت سرقسطة عندئذ ان تتنفس الصعداء ،

وتستعيد سلطانها على الولايات التي انتزعت من يدها ، ولم يكن لها قِبَل بالدفاع عنها .

ولكن لم يطل الأمر حتى ساورها خطر جديد من ناحية ارغون لا يقل هولاً عن الخطر الأول ، فان أميرها شانجه ابن رذمير (Sancho Ramiro.) ، اغار من جبال البرنات (Pyrénées) بعشرين الف مقاتل على نهر ابره ، فتصدى له المستعين بن هود ، صاحب سرقسطة يدافعه بظاهر وشقة (Huesca) ، وقيل ان السيد رذريق الفارس القشتالي حارب مع المسلمين في هذه الموقعة ، وكان يومئذ ضيف المستعين بعد ان نفاه الفنس السادس من قشتالة .

إلا ان النصر حالف الارغونيين فانهزم أمير سرقسطة في جيشه ودخل وشقة محتمياً بقلعتها الحصينة ، فضرب المسيحيون حولها آلات الحصار ، وشدوا عليها الخناق ليكرهوها على الاستسلام ، فصبرت باسلة ، ودافعت انبل دفاع لقي منه الارغونيون ضيماً وخسراناً ، وأصيب فيه شانجه بسهم قاتل أودى بحياته (١٠٩٣ م) . ومع ذلك فالحصار ما برح على شدته وضغطه ، وتمكن الغزاة في الوقت نفسه من افتتاح مدينة افراغة (Fraga) والتغلب عليها ، فلم يبق من سبيل للمستعين إلا ان يفزع الى حليف يناصره ، وينفّس الكرب عنه . فرأى ان يحالف عدوه الفنس

السادس لما يعلم من تفسخ الأمراء المسيحيين ، ثم من استياء صاحب قشتالة لتوسع مملكة ارغون .

وقد تعودت سرقسطة لتطرف إمارتها ان تؤدي الجزية لملوك قشتالة ، وتحالفهم على الأعداء الذين يهددونها من قطلونية وارغون والبشكنس (**Basque**) ، فقد رأينا السيد رذريق يلجأ اليهـــا ، لأن أميرها أبا جعفر المقتدر ، ومن بعده ابنه المؤتمن والد المستعـين كانا حليفين لفردينان الأول ، ثم لولده الفنس السادس ، فغير عجيب أن يحذو الابن حذو أبيه وجده فيحتمي بعاهل قشتالة في الملم العصيب .

وكان الفنس قد استأنف أهبته ونشاطه بعد كارثة الزلاقـة ، فخرج سنة ١٠٨٧ يثخن في الولايات الأندلسية ، مستنزلاً أمراءهـا عن قواعدهم وحصونهم . فعـاد هـؤلاء إلى استصراخ يوسف بن تاشفين ، فعبر اليهم سنة ١٠٨٨ م ينثر التيجـــان عن رؤوسهم ، ويبسط يده على إمـاراتهم . وافتتحت جيوشه بلنسية سنة ١٠٩٢ م فازالت عنها كلمة النونيين ، وهي تحت حماية السيد رذريق يومئذ ، تابعة لمملكة قشتالة ، وقد رأينا الفارس الاسباني يخف لانقـاذهـا برجاله وحلفائه المسلمين ، حتى استردهـا سنة ١٠٩٤ م . لذلك لا يصح قبول الرواية التي تزعم انه حارب ملك أرغون سنة ١٠٩٣ م منتصراً للهوديين ، لأنه كان منصرفـــاً في تلك السنة إلى تحصين

القلاع الجبلية المحيطة ببلنسية ، ثم إلى السعي لمحالفة الأمراء المسلمين في السهلة وشاطبة ودانية ومربيطر .

وكما كان السيد مهتماً بصد المرابطين عن الولايات الشمالية خشاة ان يدخلوا اسبانية ، فكذلك كان هم الفنس السادس ، فقد أزعجه توغلهم في الأنحاء الجنوبية والشرقية ، واستيلاءهم على بلنسية ، فنشط إلى حشد الجيوش ليدفعهم عن بلادهم إذا حاولوا الغارة على طليطلة . فلهذا لم يكن بوسعه أن يجيب نداء المستعين عندما استغاثه ملتمساً حمايته ، واعداً بتأدية الجزية على ان يمده بجيش يرد الارغونيين عن وشقة ، وقد بلغ منها الحصار أشده . فلما رأى المستعين ان الفنس عاجز عن مساعدته لاشتغاله بدفع الخطر الصحراوي عن مملكته أيقن ان لا فائدة من محالفته ، فنقض المعاهدة ، وولى وجهه شطر المرابطين ، مع علمه بما يجر تدخلهم من الخطر على امارته ، ولكنهم على علاتهم أبناء ملته . ولعله تمثل بقول المعتمد بن عباد : « رعيُ الابل خير من رعي الخنازير . »

فأوفد ابنه عماد الدولة الى يوسف بن تاشفين في مراكش ، ومعه الهدايا النفيسة ، يخطب وده ويستعينه على الأرغونيين ، فلم يتلكأ أمير المسلمين عن محالفته ، وهو يعلم موقع سرقسطة ، وما يرجى من فائدته في مهاجمة الأمراء المسيحيين لقربها من

ممالكهم .

ثم انه كان يؤثر ان تظل هذه الدولة المسلمة شجاً في حلوق الاسبانيين . فبادر الى انجاد وشقة بستة آلاف راجـــل والف فارس ، واعداً بمتابعة الامداد . وكتب الى أمراء دانية وشاطبـه والسهلة ، يهددهم ويدعوهم الى نصرة المستعين ، وطرد الارغونيين عن وشقة .

وكان عرش ارغون قد صار بعد وفاة شانجة الى الدون بدرو ولده الأكبر ، فتولى بنفسه قيادة الجيش ، ملتزماً حصار القلعة ، حتى اذا بلغـــه زحف المرابطين ومن انضم اليهم من العساكر الاندلسية رفع الحصار عن وشقة وخف الى لقائهم في الكرّازة ، فمزق جموعهم ثم ارتد الى وشقة ، فما انفك يحاصرها حتى سقطت في يده سنة ١٠٩٦ م ، فجعلها قاعدة لملكه .

ويقول المستشرق الالماني جوزف اشباخ ان الحروب الاسبانيـة بين المسلمين والنصارى اتخذت في ذلك العهد شكلاً صليبياً منظماً لأن الكرسي الرسولي منع امراء اسبانيـة من الذهـاب الى الشرق للمساهمة في انقاذ الأراضي المقـــدسة اسوة بغيرهم من الأمراء المسيحيين ، مخافة ان تنتقص قواهم ، فيعجزوا عن القيام بقسطهم من الحرب الدينية في الغرب ، خصوصاً بعدمـا اوغلت جيوش المرابطين في ولايات الأندلس ، وبات خطرها يحدق بالممالك المسيحية

في اسبانية ، إن لم يكن بالممالك الغربية جمعـــاء . فهب الأمراء الاسبانيون من كل جانب يدافعون العدو المغـــير على ثغورهم ، فاتسعت دوائر القتال ، وتعددت جبهات المعارك ، ففي كل ناحيـة تزهق أرواح ، وتغلي دماء .

وكان ملك أرغون قد أطمعه سقوط وشقة فراح يوالي الغارة اثر الغارة ووكده سرقسطة دون سواها . بيد انها امتنعت عليـه متمردة ، فردته خائباً يائساً سنة ١١٠١ م . ثم ان المرابطين استردوا بلنسية سنة ١١٠٢ م بعد موت السيد رذريق ، فأصبحوا مسيطرين على القسم الشرقي من البحر والـبر ، يهون عليهم أن يتداركوا سرقسطة ويدرؤوا الخطر عنها . ثم رأوا ان وجودهم فيها أجدى نفعاً لهم اذا أرادوا الغارة على قطلونية وارغون فدخلوها على كره من المستعين سنة ١١٠٧ م ، فنشبت بينهم وبين الارغونيين معارك متتابعة . وكان يوسف بن تاشفين قـد توفي سنة ١١٠٦ م وصارت الامارة بعده الى ابنه علي ، فحشد جيشاً عظيماً سنة ١١٠٨ م عاقداً لواءه لأخيه تميم .

فزحف الأمير المرابطي الى قشتالة يثخن فيها ، فاعترضته قلعة اقليش (Uclés) تستوقفه بحصونها المنيعة ، فاناخ عليها يحاصرها ويساور آطامها ، فـأصابها منه ضيق شديد . وكان الفنس السادس قد بلغ من كبر السن ما أقعده عن خوض المعارك ، فأشفق على

قلعته أن تستخذي للاعـــداء ، فتفتح لهم الطريق ، فيتوغلوا في أرضه ، فامر بان ترسل اليها نجدة قوية تنفس الكرب عنها ، ولو يستطيع لقاد هذه الحملة بنفسه ، وهو يعلم ما لوجوده من التأثير في إذكاء حمية رجاله .

فخُيِّل اليه ان يملأ هذا الفراغ بارسال وحيده شانجـــه وعمره يومئذ احـــدى عشرة سنة ، أو خمس عشرة سنة ، على رأي لاوي بروفنسال ، فسار الغـــلام مع الجيش يصحبه مؤدبه الكونت غرسيه ، حتى بلغوا اقليش ، فـــالتحموا والمرابطـين في معركة الوطاة ، عادت عليهم بالخسار والخذلان ، فقتـــل شانجـــه ومؤدبه ، وعشرون الفاً فيهم سبعة من قوامس (Comtes) قشتالة .

لا نحاول ان نحيط ما أصاب الفنس من الحزن الأليم عنـدما انتهى اليه نبأ اقليش . فحسبنا أن نتصور هذا الملك الشيخ يجر وراءه امجاد ثلاث واربعين سنة استوى فيهـا على العرش ، فـاذا هو يمنى آخر حياته بكارثة لم تقتصر على انكسار جيشه ، واستسلام قلعته ، بل جاوزت ذلك الى الفجيعة بابنه الوحيد ، بقية أمله ، ووارث عرشه .

وتقول الرواية الاسبانيـة ان شانجـة لم يكن ولداً شرعياً ،

فقد رزقه الفنس من حظيته ابنه المعتمد بن عباد[1] ، وكان يحبه كثيراً لما بدا من نجابته على حداثة السن ، فخالف فيه القانون المرعي وجعله ولي عهده ، ومحط رجائه . فماذا يكون مصير تلك المملكة العظيمة إذا تركها ولا وارث من صلبه يجمع اجزاءها ، وهو لا يأمل أن يرزق ولداً بعد أن بلغ من العمر عتياً ؟

وقعت هذه الهموم ثقيلة على عاتق الشيخ الفاني ، فكاد يهوي تحتها لولا بقية حزم لم تنل منها عاديات السنين . فرأى ان لا سبيل الى بقاء العرش في سلالته الا بنقل ولاية العهد الى ابنته اوراكا . وكانت فتاة ذكية كثيرة المطامع ، تزوجت في العاشرة من عمرها بالكونت ريمون البورغوني . ثم توفي بعلها بعدما رزقت منه غلاماً سمته الفنس باسم ابيها . غير ان الملك الشيخ خشي الا تستطيع ابنته حماية المملكة وحدها ، فآثر أن يزوجها ملكاً قوياً من أنسبائه ، فوقع اختياره على ملك ارغون حفيد عمه راميرو .

وكان بدرو قد توفي سنة ١١٠٥ م وخلفه أخوه الفنس الأول ، ذاك الذي لقب بالمحارب ، لبسالته وغاراته المتلاحقة على ثغور المسلمين . ولم يغب عن والد اوراكا ما يتعلق بهذا الزواج من الخير لاسبانية ، اذ تصبح مملكة قشتالة ولاون وجليقية واشتوريش

---

(١) هي كنة المعتمد لا ابنته . راجع موقعة بلنسية والسيد .

ومملكة ارغون والبشكنس دولة واحدة . فدعـــا مجلس النواب (Cortés) فانعقد في لاون حيث اجتمع الأساقفة والقوامس وحكام الولايات ورجال الدين والأشراف والفرسان وممثلو الطبقة الوسطى ، فقرروا أن تكون أوراكا وارثة مملكة قشتالة ولاون واشتوريش ، وان تزوج بالفنس الأول ملك ارغون ، حتى اذا لم ترزق منه ولداً عادت المملكة باجمعها الى ابنها الفنس البورغوني ، واعطي هذا عرش جليقية على ان يكون تابعاً لقشتالة .

وتوفي الفنس السادس سنة ١١٠٩ م بعد ان اطمأنت نفسه الى نظام ولاية العهد ، وأمن على عرشه من الانهيار ، وما خطر له ان زواج ابنته بنسيبها ملك أرغون سيدفع البلاد الى فتنـــة حمراء . ذلك ان كلا الزوجين رضي الآخر بدافع المنفعـــة الشخصية لا بدافع الحب المتبادل ، وان كليهما كان يريد أن يستأثر بالسلطـة دون رفيقه ، وفي نفسه من الطماح والصلابة ما يأبى عليـه أن يلين أو يتنازل عن شيء من حقوقه ، حتى بلغ التنـــازع بينهما الى النفور فالتباغض ، ثم الى مجاهرة الخلاف والقطيعة . فطلبت اوراكا الطـلاق متذرعة بموانع القربى ، وراحت في الوقت نفسه تبسط يدها للعشاق مستنصرة بهم ، مثيرة غيرة بعلهـا لتحمله على قبول الطلاق .

واشتهرت روايتها الغرامية فباتت سمراً للناس ، ولاسيما صلتها

بالكونت غومز . وكان الفنس يتألم في كبريائه من سلوك زوجته ويزداد سخطاً عليها . غير انه رأى من الحكمة أن يرفض تطليقها حفاظاً على حقوقه في مملكة قشتالة ، وان يعمد الى تدبير جازم يضع حداً لنفوذها وتهتكها . فأمر باعتقالها بعد ان جعل حصون طليطلة في حراسة جنوده الارغونيين .

الا انها تمكنت من الفرار وأخذت تدس لزوجها وتؤلب عليه الأنصار من قشتالة ولاون واشتوريش ، فنشبت في اسبانية حروب اهلية أدمتها عدة سنوات ، وخاض غمارها الفنس بن اوراكا منازعاً امه من جهة والفنس المحارب من جهة اخرى ... على انها كانت تتوقف حيناً بعد آخر ليردوا غزاة المرابطين عن بلادهم او ليغيروا على ثغور الأندلس .

ولبثت اسبانية قلقة لا تستقر على حال ، حتى يئس الفنس المحارب من خضوع قشتالة ، فسكت عن المطالبة بحقوقه مكتفياً بلقب قيصر اسبانية ، أسوة بالفنس السادس . وكان الحبر الأعظم قد أقر فسخ الزواج بمانع القرابة ، فانفصلت اوراكا عن زوجها انفصالاً شرعياً . ثم أزال بسلطانه الروحي خلاف الأم وولدها على ان يملكا معاً ، فتم الصلح بينهما في اجتماع عقد سنة ١١٢٤ .

وكان ملك ارغون ، مع اشتغاله بالفتنة الاهلية لا يفتر عن

مجاهدة المرابطين ، ومنعهم من الايغال في بلاده . فقد أغـار علي ابن يوسف بن تاشفين على ولاية طليطلة ، فاستولى على طـــائفة من حصونها ، وافتتح مجريط (مدريد) ، ووادي الحجـــارة (Guadalajara) وسواهما ، ثم عاد الى مراكش وبقي قائده مزدلي يتابع بعده الغارات .

وحدثت عدة مواقع في جهات مختلفة من الولايات الاسبانيـة رافق النصر في اكثرها المرابطين فافتتحوا عدداً من المدن والقلاع واتلفوا الحقول والمزارع ، فاصيبت البـلاد من جراء ذلك بقحط شديد ونالها من العناء ما أضيف الى ما تعانيه من حربها الداخليـة التي انتفعت بها جيوش ابن تاشفين . ويقيناً لو ان المرابطين واهل الأندلس على وفاق خالص لكانت الفرصة يومئـذ اسنح مـا يرجى لاكتساح العدو والقضاء عليه . ولكن أمراء الاندلس كانوا ناقمين على الدولة الافريقية لاستطالتها على ولاياتهم ، واغتصابهـــا السلطة من أيديهم ، فلم يولوها المعونة الصادقة ، بل ربمـا وجـدت فيهم من يمالئ الاعداء ، فان أمير سرقسطة عبد الملك بن هـود ساءه ان يصبح المرابطون سادة في عاصمته يعود الامر اليهم ، وهو ليس له أمر . فانتفض عليهم غير ناظر في نتيجة عمله .

كان شجاعـاً كابيه المستعين ، ولم يكن كأبيـه ذكاء وفطنة ، فخرج من سرقسطة برجـــاله وأهله ، فقصد الى حصن روطة

(Roda) فامتنع به . ولو اكتفى بعمله هذا لهان الخطب ، ولكن مقته للمرابطين ضرب على عينيه غشاء من الغفلة فتورط في عقد محالفة مع الفنس المحارب ، ناسياً ان حليفه الجديد يطمع من زمن في امتلاك سرقسطة ، ليزيـل عقبة كأداء تواجه مملكته ، وتحول بينه وبين حرية الملاحة في نهر ابره . وما كان ينبغي له أن ينسى ، والعهد قريب ، مهاجمة الأرغونيين لعاصمتـــه غير مرة ، وارتدادهم عنها خاسرين ، أمام مزدلي قائد المرابطين ، بل مـــا كان ينبغي أن ينسى مقتل أبيـه المستعين وهو يدافع عن حصن تطيلة (Tudela) سنة ١١١٠ ليمنع ملك أرغون من التقـــدم إلى سرقسطة .

فلما تمت المعـــاهدة بين الأميرين زحفت جيوشهما متحدة الى المدينة فحاصرتها حصاراً شديداً ، واكرهت المرابطين على الخروج منها فتركوها سنة ١١١٧ م (٥١١ هـ) بعدما حاولوا استردادها تكراراً دون جدوى ، حتى تمزق جيشهم في المعركة الأخيرة التي اصطلى نارها الأمير تميم .

وهنا تختم مأساة سرقسطة ، فان الفنس المحارب بعد ان بات بمأمن من خطر المرابطين علوده الطمع في الاستيلاء على تلك القاعدة الحيوية لمملكته . فطلب إلى حليفه ان يتنازل له عنها ، فكان جواب عبد الملك رفضاً أبياً ، واستعداداً للدفاع .

على ان ملك أرغون لم يكن يتوقع غير هذا الجواب ، فجاءه وهو على تعبية لمهاجمة المدينة ، فباغتها بجيشه قبل ان تأخذ أهبتها للقاء ، فنصب عليها آلات الحصار ، وواثبها بقسوة عاتية ، فقابلته بمثل شدته ، وصبرت للحصار صبراً شريفاً ، يتفق المؤرخون على التنويه بذكره ، مع انها لا تامل نجدة تأتيها فتفرج الضيق عنها ، وليس لديها من المؤونة ما يكفيها لحصار طويل ، حتى إذا نشب الجوع يهددها وآضت المقاومة إلى ضرب من الجنون فالانتحار ، اضطر عبد الملك إلى طلب الصلح والتخلي عن عاصمته ، وهو في يقظة من الألم المرير لغفلته الحمقاء .

فعاهده الفنس ان يضمن لأهل المدينة الأمان على النفوس والأموال ، وان يترك لهم الحرية في إقامة شعائر الدين وشرائع التقاضي ، وان يخيرهم في البقاء أو المهاجرة .

ففتحت سرقسطة أبوابها في ١٨ تشرين الثاني ١١١٨ م (٤ رمضان ٥١٢ هـ) فدخلها ملك أرغون بعساكره محفوفاً برسوم الأبهة والجلال . وفيما هو يحتل قصورها وثكناتها ، ويحول مسجدها الجامع الى كاتدرائية ، كان عبد الملك بن هود يشد أثقاله ويحمل أمواله ويخرج في مأتم من أهله وحرسه إلى حصن روطة ليتخذه مقراً . وهاجر بعده كثير من المسلمين ، فمنهم من اقتفى أثره ، ومنهم من قصد مرسيه او بلنسية .

وجعل ملك أرغون سرقسطة عاصمة لمملكته كما جعـل ملك قشتالة طليطلة من قبل ، فانهارت بها القاعدة الثانية من كبريات قواعد الأندلس العربية بعدما لبثت اربع مائة سنة حصناً ركيناً من حصون المسلمين ، وقذى في عين اسبانية المسيحية ، تعترض طريقها جاثمة على نهر ابره .

معركة الارك

كل امراء الأندلس ، كعبد الملك بن هـــود ساخطون على المرابطين ، يشتهون زوال دولتهم ، لا يحترسون من صفقة حمقاء يعقدونها على غرار سرقسطة ، توسلاً للخلاص من جفاة الصحراء ، شاء القدر المشؤوم ان يفزعوا اليهم في تفسخهم ، وخناق الاسبان يلتف على أعناقهم .

فما نفس يوم الزلاقة عن صدورهم حتى تهاوت التيجـــان عن الرؤوس ، وتداعى عليها استقلال شعب ما انفك ، منذ أربعـة قرون ، ينافح الأعداء حرصاً عليـــه ، ويقرّب لهيكله الحرام غوالي الدماء .

فـــاذا هم في أرضهم طعام مأكول ، ودولتهم ولاية في دولة

الملثمين ، واذا مراكش عاصمة لقرطبة أم العواصم ، وحــاضنة الخلفاء والملوك ، تنهى وتأمر فتطــاع ولا تُسأل ، وتعطي ولا تُحاسب . فان المرابطين ما تعودوا في عسفهم ، وعسف وطـأتهم ، مجاملة وسماحاً .

انهم يسوقون أهل الأندلس سوق الغالب للمغلوب ، ومخاشنة البدو الغلاظ للحضر المتنعمين . يطاردون الفكر فما تطمئن اليهم فلسفة أو منطق . ويـتعشون التعصب ، فكل مذهب الا مذهب مـــالك مضطهد مكروه . بالحيف والارهاب يأخذون الناس ، وآذانهم يفتحون للدسائس والوشايات .

دانت لهم الأندلس مستكينة للبطش والقوة ، فامتلكوهـــا قادرين . ولكنهم عجزوا عن امتلاك القلوب . برابر غرباء ، لا روحهم روحهـــا ، ولا عقليتهم عقليتها . فيهم قسوة وصلابة واستبداد . فلبثت تململ حاقدة تحت قبضتهم العـاتية ، شأن كل أمة مهيضة ، تعنو للمسيطر ما دامت له القوة ، حتى اذا آنست فيه الضعف افلتت غاضبة تطلب استقلالها المفقود .

ويقودها الحقد ، مع ما بهـا من وهن العود ، الى التخلص من الغاصب على غير روية وهدى ، فتحالف دولة مخوفة الجـــانب ، تستنصرها وتستخلصها مغترة بما تجد عندها من العطف ولـــين

المواعيد . ويتغافل أصحاب الحكم فيها عن الخطر الجديد في الحلف الجديد ، يتهافتون عليه عامهين ، وهم لو راجعوا قرارة نفوسهم لرأوا انهم لم يقعوا على اهون الشرين .

بل حب التشفي من المتسلط القديم ، والأمــــل المعقود على الموهوم من فضيلة التغيير ، يجعلهم يتعامون عن الخطر الأعظم ، لا يبصرون لديه إلا خـــيراً وفرجاً ، فتمتد اليه الأيدي داعيــة ، مستجيرة من الرمضاء بالنار ، لجوء امراء الأندلس الى ملوك اسبانية متناسين مطامع قشتالة وأرغون ، وتاريخاً صارخاً مخطوطاً بالدماء ، أو كما لجاوا الى الموحدين يستقدمونهم .

وانما هم يستبدلون دولة افريقية ظـــافرة ، بدولة افريقية مغلوبة ، وينتقلون من استعباد الى استعبـاد ، لا يخطر لهم على بال ان يبحثوا في ذواتهم عن الداء والدواء بحثاً صادقاً مجديــــاً ، ليدركوا ان ما بهم من هزال ناشيء عن شقاقهم وتخاذلهم ، نتيجة مرض السيادة فيهم ، وعدوان قويهم على حرية الضعيف . فأصبح بعضهم يناصب الآخر أو يخذله اذا واثبه عدو غريب . وربما حالف هذا العدو عليه ، لا يبالي ما يجر على بلاده وقومه من الهوان والدمار . فبين امراء الأندلس تبادل لا ينقطع من الطمع والحذر واضمار الشحناء ، مع ما هم عليه من الاستهداف الطبيعي لغزوات جيرانهم في الشمال والجنوب .

ومعلوم أن الممالك الاسبانية لا تقل عن الممالك الاندلسية تباغضاً وخلافاً . غير انهم كانوا يدفنون أحقادهم إلى حين عند تكالب الأخطار ، فيتهادنون او يتحالفون ليصرفوا قواهم الى مجاهدة أعداء الدين ، وان كان بعضهم لا يستنكف أحياناً ان يحارب أبناء ملته في صفوف المسلمين .

ويجدون عدا ذلك ، في الدول المسيحية المجاورة ، أعواناً يخفّون الى نصرتهم رغبة في الجهاد او شهوة للغنائم ، لا طمعاً في الاستيلاء على بلادهم وإزالة كلمتهم ، كما يطمع سلطان مراكش في التغلب على الأندلس ، فيستبد بشؤونها المرابطون ، ثم يستبد بشؤونها الموحدون .

وقد صبر الاندلسيون على حكم أبناء تاشفين ، زهاء قرن ، يقدمون لهم الطاعة كرهاً ، ولا يحجمون ، اذا أمكن ، عن خذلهم في محاربة المسيحيين . حتى سقطت سرقسطة في يدي الفنس المحارب (١١١٨ م) .

ثم تلتها معارك اخرى ، افتتحت خلالها قلاع حصينة ، كان يعتصم بها الملثمون ، من بينها قلعة أيوب (Calatajud) ، أناخ عليها الفنس سنة ١١٢٠ م ، فدافعه دونها الامير تميم ، ثم اضطر ان ينزل عنها ، بعدما صُرع أمامها عشرون الفاً من

جنوده الاباسل .

فهذه الهزائم المتتابعة نالت من هيبة المرابطين ، وأطمعت فيهم اهل الاندلس ، فاستهانوا الوثوب عليهم لإجلائهم واستعادة الحق المغصوب . وكانت قرطبة في رأس القواعد الاندلسية سخطاً وحنقاً ، يؤذي كرامتها ، جنف الصحراويين وغلاظتهم ، ولم يأنِ لها ان تنسى عزتها الملوكية والعرش الاثيل . فهبت ثائرة تضرب في وجه الحامية المرابطية ، وتريها المنايا الواناً ، حتى حملت عليّ بن تاشفين على ان يعبر الزقاق بجيش لهام ، فيخمد ثورتها بعد عناء .

ولكن ما حيلة المرابطين وقد تأذّن القدر بانهيار سلطانهم ، فتركهم غرضاً لسهامه ، فبينا هم يغالبون احرار الاندلس حيناً ، وغزاة الاسبان احياناً ، أخذت ثورة الموحدين تحتدم في المغرب ، فتستأثر بقواتهم ، وتشغلهم عن ضبط ولايتهم عبر المضيق ، ودرء الاعداء عنها .

فان الدعوة التي اظهرها مهدي بني مصمودة محمد بن تُومَرت كانت بليغة التأثير ، سريعة الانتشار ، فتبعه خلق كثير ، فجند منهم عشرة آلاف ، وقدم عليهم أبا محمد البشير أحد صحابته العشرة ، وبعثهم لمجاهدة المرابطين ، فراحوا يغزون في بلاد المغرب ، وينكلون بالجيوش المرابطية (١١٢٢ م) حتى أوقعوا

الذعر في القلوب..

وما زال الخطر يعصف من بلد الى بلد حتى شارف مراكش العاصمة، فدافع عنها الملثمون مستبسلين مستميتين، فتمكنوا من انقاذها، وارتد عنها الموحدون خاسرين، بعد ان قتل قائدهم أبو محمد البشير (١١٢٥ م).

على ان انتصار المرابطين في مراكش، لم يكن بوسعه ان يستر انخذالهم في الوقت نفسه، أمام الفنس المحارب ملك أرغون. فقد أغار هذا الامير المقدام، على الولايات الاندلسية متكلاً على مساعدة « الفرقة الخامسة » من المعاهدين (Mozarabes)، وهم النصارى المستعربون الذي يعيشون في الاراضي الاسلامية.

واستطاع ان يجتاب الاندلس من الشمال الى الجنوب عائثاً مخرباً ينسف الزرع والعمران، ويزداد جيشه تضخماً كلما تقدم بما ينضم اليه من المعاهدين حتى بلغ البحر المتوسط. ثم عاد برجاله سالماً غانماً منتصراً. أفلا يكفي هذا وحده أن يؤكد للأندلسيين ضعف القوى المرابطية، فيستهينوا بها، ويذهب ما عندهم لها من الحرمة، وهم إلى ذلك يعلمون ان ثورة المغرب في أبان اشتعالها، والملثمون، كما يبدو، عاجزون عن إطفاء نارها.

فان هزيمة الموحدين في مراكش لم توهن عزيمة المهدي ولا صرفته عن دعوته الجريئة ، فعهد في قيادة عساكره إلى عبد المؤمن بن علي موضع ثقته العظمى ، وأحب صحـــابته اليه . فتمكن هذا من الإيقاع بجيش عظيم من المرابطـين يقوده الأمير . أبو بكر بن عـلي (١١٣٠ م) . وعقب هذا الانتصار موت المهدي ، فبويـع عبد المؤمن بالخلافة بعده ، فتم على يده فتح مراكش وانهار عرش ابناء تاشفين (١١٤٦ م) .

ومن الطبيعي ان تساهم الأندلس في إرهاق المرابطـين ، خلال هـذه السنوات ، مساهمة فعالة ، على أمل ان تخلع نير المغتصب ، ويعود اليها استقلالها القديم . فإذا هي تخدم مصلحة الموحدين من حيث أرادت ان تخدم مصلحتها . فقد شبت الثورة في البقـــاع الغربية ، يؤرثها أحمد بن الحسين بن قسيّ ، فاندلعت سريعة ممتدة إلى اشبيلية وقرطبة ، تتلقف المرابطين من كل صوب ، ويعجز عن كبحها قائدهم يحيى بن غانية .

بيد انها تحتاج إلى نجدة تأتيها من الخارج فتضمن نجـاحها ، والموحدون في عدوة المغرب يثخنون في المرابطين ، فلماذا لا يدعوهم أحمد بن الحسين ويقدم لهم الطاعة ، حتى إذا أبطـأوا عن تلبيتـه بشاغل حروبهم لا زهداً في الأندلس ، تتلفت انظاره إلى الفنس بن هنري البورغوني ملك البرتغال ، فيمده بتجريدة باسلة ، تنفـذ في

الولايات المرابطية مفسدة ثقيلة الوطأة .

وكان عبد المؤمن أمير الموحدين يحـــاصر يومئذ مراكش (١١٤٦ م) ، وعينـاه ناظرتان إلى الجزيرة ، يرى الملك البرتغـالي يناصر الثوار ، ويملأ يديه من الغنـــائم ، ويرى الفنس السابع ملك قشتالة [١] ، يعضد المرابطين طمعـاً فيهم ، ومعاكسة لصاحب البرتغـال .

أفمـــا يجدر به أن يخف إلى نجدة ابن قسيّ ، فيسحق قوات الملثمين ويقصي خطر المسيحيين عن الأندلس المسلمة ، فهو بها اولى ، واليه قبل غيره فزعتها ونداؤها ، وهـذه مراكش توشك ان تفتح له الأبواب .

فجهز حملة من عشرة آلاف فارس وعشرين الف راجـــل ، وقدّم عليها قائده موسى بن سعيد ، ثم أجازها الزقاق ، فافتتحت حصن الجزيرة ، وجبل طارق ، هازمة عنها قوات المرابطين . ووافق ذلك سقوط مراكش ، وزوال دولة ابن تاشفين في افريقية ، فبات من السهل على الموحدين ، وثوار الأندلس حلفـــائهم ، ان يستأصلوا بقايا أعدائهم ، أو يقسروهم على الجلاء .

---

(١) هو ابن ريمون البورغوني ، وامـــه اورا كا زوجة الفنس المحارب ، وقد مر ذكره قبلا .

ومع هذا ، لم يتم لهم الأمر إلا غب معارك دامية ، بذل فيها الفنس السابع جهداً عظيمـــاً ، دون جدوى ، لنصرة الملثمين ، فأوهنت قواه على تقـــدم العمر ، فمات منهوكاً سنة ١١٤٧ م ، وترامى شتيت المرابطين الى الجزائر الشرقية (Baléares) . أمـا الأندلس فلم تزل تابعة مراكش تحـــلم بالاستقلال ، وتستيقظ على العبودية . بالأمس كان يتولاها الأمير تميم ، من قبل أخيـــه بن تاشفين ، واليوم يتولاها السيد أبو يعقوب يوسف ، من قبل أبيـه عبد المؤمن بن علي ، بربري اثر بربري : مـــا أضيع الثورة في سبيل الحرية !

لم يستطع الخليفة الموحدي ان يدخل الارض الاندلسية إلا سنة ١١٦١ م ، بعد ان دوّخ بلاد افريقية وافتتح المهدية وتونس ، وكانتا في حكم النرمند أصحاب صقلية . فعبر المضيق ونزل بجبل طارق ، فأنشأ فيه حصناً سماه جبل الفتح .

إلا انه لم يمكث طويلاً بل آثر العودة الى عاصمته المغربيـة ، تاركاً جيشه يوالي منـازلة الثائر محمـد بن سعد بن مردنيش أمـير بلنسية وحليف قشتالة ولاون . وتوفي عبد المؤمن قبل ان تقمع ثورة ابن مردنيش ، فتولى الخلافة ابنه ابو يعقوب يوسف ، فتابع مجاهدة الثوار وحلفائهم الاسبانيين ، حتى استنزلهم عن بلنسية سنة ١١٧١ م ، فهرب محمد بن سعد إلى جزيرة ميورقة (Majorque) ،

وخضع اولاده لسلطان الموحدين .

وكانت البرتغال يومئذ أشد الممالك المسيحية صولة على الاراضي الاسلامية ، فان مليكها الفنس البورغوني ، بعد أن حقق استقلال دولته ، نازعاً عنها يد قشتالة ، صرف همته الى توسيع حدودها بامتلاك ما جاورها من الثغور الاندلسية ، فلقب بالفاتح ، لكثرة ما أخضع من المدن والقلاع . فكان على الموحدين أن يجابهوا هذا الخطر قبل استشرائه .

فحشد أبو يعقوب جيشاً عظيماً سنة ١١٨٤ م واجتاز به الى الاندلس قاصداً اشبونة (لشبونة) عاصمة البرتغال . فقطع نهر التاج ، فاعترضته قلعة شنترين الحصينة (Santarein) ، فنصب لها ادوات الحصار ، وامر ابنه السيد ابا اسحق والي اشبيلية ، ان يسير بقواته في الصباح وجهة اشبونة ، ويحمي طريق شنترين . ففهم الامر على غير وجهه ، وارتد بعساكره نحو اشبيلية ، في حين ان شانجه (Sancho) ، ابن ملك البرتغال ، كان يتقدم الى شنترين بخمسة عشر الف مقاتل ، ثم ينضم اليه اسقف شنت ياقب بعشرين الفاً .

فوقع الاضطراب في صفوف الموحدين ، وقلقت نفوسهم بغفلة ابي اسحق ، اذ اصبحوا بين القلعة والجيش الزاحف عرضة للتطويق . وأدركهم المسيحيون وهم على هذه الحال المزعجة ،

فقاتلوا قتال اليائس ، الواهن العزيمة ، فدارت عليهم الدائرة ، وقتلت نخبة فرسانهم . وصبر الخليفة أبو يعقوب لعض السلاح صبر الكرام حتى سقط مدرجاً بدمائه ، ثم توفي متأثراً من جراحه (١١٨٤ م) . وكان يوم شنترين مشؤوم الطالع على الموحدين ، فارتدت فلولهم الناجية الى قواعدها الاندلسية بأسوأ مصير .

وصارت الخلافة بعد أبي يعقوب إلى ولده الامير عبدالله يعقوب ، فتلقب بالمنصور . وكان همه في بدء سلطانه أن يجهز على بقايا المرابطين في الجزائر الشرقية ليمنع عدوانهم ، او يخمد فتنة داخلية يختل بها السلام ، فأتاح للبرتغال ان تغنم فرصة مؤاتية ، فتستأنف الغارات على الاندلس وتعود منها بفتح جديد . ثم توفي ملكها الفنس (١١٨٥ م) فتسلم العرش بعده ابنه شانجه ، فسار على خطة ابيه في منازلة المسلمين .

ثم شغلته احداث داخلية ، فترك الجهاد لالفنس الثامن ملك قشتالة . وكان هذا الامير لا يفتر عن غزو الولايات الاندلسية ، مع ما يعاني من مشاكل عسيرة تولدت بعد وفاة ابيه شانجه الثالث . وذلك ان جده الفنس السابع اتبع نظام ولاية العهد . الطريقة السيئة التي سنها اسلافه ، فقسم مملكته بين ولديه ، فجعل اكبرهما شانجه الثالث على عرش قشتالة . وأعطاه حق الجزية على مملكتي

نافـار وارغون . وجعل اصغرهما فردينان الثاني على عرش لاون وما يليها ، وأعطاه حق السيادة على البرتغال . وكأنه اراد ان يتدارك خطر هذه التجزئة فاشترط على فردينـــان ان يكون تابعاً لاخيه .

وفي سنة ١١٥٨ م توفي شانجه الثالث ملك قشتـاله عن ولد في الثالثة من عمره اسمه الفنس ، ويلقب بالنبيل ، بعد ان عهـد في الوصاية عليه الى بعض اشراف كاسترو من اكرم الاسر الاسبانية ، ولم يجعل الوصاية لزوجه بلانكه اخت ملك النافار ؛ ولا لاخيـه فردينان خوفاً على الطفل من مطامع عمه وخـاله . وكانت اسرة لارا تنافس ابناء كاسترو في الشرف والسيادة ، فساءهـا ان يصبح الملك في حوزة نديدتها ، تعتز به ويتعاظم نفوذها وسلطـانهـا . فحملها الحسد على ان تختطف الامير الصغير وتجعله في عهدتها . فأدى عملها هذا الى حدوث مجزرة بين الاسرتين دميت لهـــا اسبانية وتفككت اوصالها .

ثم استجاش آل كاسترو فردينانـ الثاني ليحمي ابن اخيه ، فساقه الطمع الى ان يبعث جيشاً يثخن في قشتالة ويحتل حصونها ومدنها . ولكنه لم يستطع ان ينتزع الطفل من ايـدي بني لارا . وثارت قشتالة بجملتهـا تؤيد هذه الاسرة لوجود الملك عنـدهـا ، فقاومت صاحب لاون وأبنـاء كاسترو معاً ، وردت غزوات ملك

النافار وأمراء المسلمين .

ولما بلغ الفنس النبيل الحادية عشرة (١١٦٦ م) بويع بالملك ، يشد أزره القشتاليون وأبنـــاء لارا ، فرد غارات عمه ؛ وطرد اسرة كاسترو ، فاخذت تلجأ حيناً الى الموحدين ، وحينـــاً الى لاون حتى توفي فردينان الثاني (١١٨٨ م) ؛ وصار الملك الى ولده الفنس التاسع ، ولم يكن كفؤاً لابن عمه صاحب قشتالة ؛ فكف عن النزاع .

وكان الفنس الثاني ملك ارغون ؛ وهو سبط راميرو اخي الفنس المحارب ، قد رأى أن يحالف قشتالة ويعترف بحقوقها ، لكي ينصرف الى محاربة المسلمين ، ودفع النـافـاريين عن الاراضي الـتي يفتتحها من الاندلس لئلا يستولوا عليهـا . امـا الفنس التاسع ملك لاون ، وشانجه السابع ملك النافار ، فكانا يؤثران محالفة المسلمين على محالفة الفونس الثامن النبيل لانهما لا يريدان الاعتراف له بالسلطان . غير ان الخطر الذي بات يهددهم من قبل الموحـــدين ، اكرههم على السكوت فكانوا يتهادنون او يتحالفون الى حين .

وشاء الفنس الثامن ان يحمل على عاتقه عبء هذا الخطر المخيف مع ما كان يعانيه من مكايد آل كاسترو والامراء المسيحيين ، فراح يغزو الاندلس ، يعيث في بسائطها ، وينيخ على قواعدهـا ، حتى أخذته نشوة الظفر وهو يسير من نصر الى نصر ، فحـدثته نفسه

بان يتحدى خليفة الموحدين ، فيـدعوه الى الحرب مستهينا بـه ، مثيراً حفظته .

ويقول ابن ابي زرع في روض القرطاس ان الفنس النبيل كتب هذه الرسالة الى الخليفة يعقوب المنصور وبعث بهـا الى مراكش : « بسم الله الرحمن الرحيم .. من ملك النصرانية الى امير الحنيفية . اما بعد فان كنت عجزت عن الحركة الينا ، وتثاقلت عن الوصول والوفود علينا ، فوجه لي المراكب والشواني أجوز فيهـا بجيوشي اليك حتى اقاتلك في اعز البلاد عليك . فان هزمتني فهدية جاءتك الى يدك ، فتكون ملك الدينين . وان كان الظهور لي ، كنت ملك الملتين ، والسلام . »

وروى ابن الاثير وابن خلكان رسالة قريبة من هذه ؛ واكثر تفصيلاً ؛ وعلق ابن خلكان عليها بقوله : « ان نص هـذه الرسالة كتب مثله الاذفونش بن فردكند (الفونس السادس بن فردينان) الى امير المسلمين يوسف بن تاشفين . » ومهما يكن من شيء فـان الرسالتين لا تختلفان في المعنى وفي طريقة الاستفزاز . فلما وصـل الكتاب الى الخليفة المنصور ، تلظى غيظـاً من صلف الملك الاسباني واستخفافه المهين . فامر ولده وولي عهد السيد محمداً بالرد عليه . فكتب على ظهره الآية : « ارجع اليهم ، فلتأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منهـا أذلة وهم صاغرون . » ثم اضاف

اليها[1] : الجواب ما ترى لا ما تسمع :

ولا كتبَ الا المشرفيةُ والقنا   ولا رسلْ الا الخميس العرمرم

وما كان من المنصور بعد ان تلقى كتاب الفنس ورد عليه الا ان نشط للحرب يعد اهبته ، ويعبىء الجيوش ويبعثها الى الاندلس .

حتى اذا تم له الحشد العظيم عبر الى الجزيرة الخضراء ، فانضمت الى جنوده العساكر الاندلسية ، فتألف منها جميعاً جحفل جرار يضيق عنه الفضاء ، كما يعبر ابن الاثير ، وتقدره بعض الروايات المغالية بستمائة الف مقاتل . وكان الجيش النظامي فيه مؤلفاً من قوات الموحدين الخاصة ، ومن الفيالق الاندلسية ، وسائره جموع غفيرة غير نظامية من قبائل العرب والبربر الراغبين في الحرب والجهاد .

ومما يجدر ذكره ان جيش الموحدين النظامي كان من ارقى الجيوش في ذاك العصر ، ويعود الفضل في انشائه وتنظيمه الى الامير عبد المؤمن خليفة المهدي ، فانه كان ذا خبرة عظيمة في

---

(١) اضافة رواها ابن الاثير والحق ابن خلكان بها الشعر . وهو للمتنبي ، ولعل الرواية التي تكتفي بالاية وحدها هي الصحيحة .

تدريب الجيوش وقيادتها ، وإدارة حركاتها . فقد ابتنى في مراكش مدرسة عسكرية يجتمع بها نحو ثلاثة آلاف طالب من الأشراف يسمون الحفّاظ وطلبة العلم . وكان يمتحنهم بنفسه ليقف على تقدمهم في فنون القتال ، فيشهد رياضتهم على أبواب الطعن والضرب والرمي والمبارزة ، والعدو وركوب الخيل والسباحة وقيادة السفن والوثب الى سفن الأعداء ومعارك البحار .

فهذه العناية بتنظيم الجند ضمنت للموحدين جيشاً مدرباً أجمل تدريب ، يطمئنون اليه في محاربة أعدائهم ، ويجني لهم الظفر في أغلب المواقع .

وكان الخليفة المنصور يرمي في زحفه الرهيب إلى مساورة طليطلة عاصمة قشتالة . فبلغه ان الفنس الثامن حشد جيوشه بين قرطبة وقلعة رباح (Calatrava) بالقرب من حصن الأرك (Alarcos) ، ويسميه ابن الاثير وابن خلكان مرج الحديد . فغير خطته ودلف إلى لقائه حيث يرابط بعساكره . فلما صار منه على مسافة يومين عقد مجلساً للشورى من كبار القواد وأصحاب الرأي ، ليتفق وإياهم على الطرق التي ينبغي اتباعها . وكان القواد الأندلسيون أدرى من غيرهم بمكايدة الاسبان ، ومعاكسة أساليبهم ، فاحب ان يسترشد بنصائحهم ، فاستشار خصوصاً القائد أبا عبدالله بن صناديد ، لما يعرف عنه من الحنكة وصدق

النظر . فأشار عليه بتوحيد القيادة وخطة القتال ، وان يعهد في قيادة العساكر الأندلسية إلى رؤسائهم ، لأنهم لا يحسنون الحرب ، ولا يتحمسون لها إذا أقيم عليهم قواد غرباء . وأشار ايضاً بأن تقدم الجنود النظامية لمجابهة العدو والتقاء حملته اذا حمل ، وان تبقى القوات غير النظامية واقفة على أهبتها احتياطاً للنجدة .

وان ينزل الخليفة ، بحرسه الأبيض والاسود وراء التلال القريبة ، فاذا تراوح الفريقان غارَ النصر فاجأ العدو بهجوم صاعق فيقضي عليه .

استحسن المنصور هذه الآراء وأمر القادة بالتزامها . ثم أناط الرئاسة العليا بوزيره أبي يحيى بن أبي حفص وكان على شجاعته ، صاحب خبرة ودراية .

وأما جيش قشتالة ، فلم يكن ضئيل الحشد . فهو على رواية المستشرق جوزف أشباخ ، يزيد على مائة الف مقاتل ، وتبالغ الرواية العربية فيه ، فترفعه إلى ثلاثمائة الف . ومع ذلك كان لا يوازي جيش الموحدين في عدده ، فان تعبيتهم يفوتها الحصر والاحصاء .

واعتمد الفنس ، على الأخص ، منظمات الفروسية المسيحية

كفرسان الداوية[1] ، وفرسان قلعة رباح ، وغيرهم من جماعات الفروسية في مملكته . بيد انه استعظم الخطب حين انتهى اليه خبر تعبية الموحدين ، فخشي سوء العاقبة إذا لقيهم بجيشه دون غيره . فكتب إلى نسيبيه ملك لاون وملك النافار يدعوهما لترك الأحقاد ، والمبادرة إلى مساعدته . فأجاباه الى طلبه نزولاً عند رغبة الشعب المتحمس .

وحشدا العساكر وسارا بها اليه ، الا انهما كانا يزحفان بطيئاً ليصلا بعد فوات الأوان ، حتى يئس الفنس من مجيئهما ، ولم يبق له سبيل غير مباشرة القتال . وأبى ان يتحصن بالقلاع التي بين يديه ، فتمنعه ما طاب للمسلمين الحصار ، وكأنه عدّ ذلك عاراً ومذمة ، فاختار الهجوم مستبسلاً متكلاً على حمية فرسانه . فابتدأت موقعة الارك ، في ١٩ تموز ١١٩٥ م ، (٩ شعبان ٥٩١ هـ) .

وكان الموحدون يحمون القلب بقواتهم النظامية ، والأندلسيون في الميمنة يقودهم عبدالله بن صناديد ، وقبائل العرب البربر في الميسرة ، والخليفة المنصور بحرسه وراء التلال . وعسكر الجيش

---

(١) فرسان الداوية هي جماعة فرسان الهيكل Les templiers نظمها الفرنجة في القدس سنة ١١١٨ م لحماية القبر المقدس ، ثم انشيء لها فرع في اسبانية .

الاسباني في مرتفع تحميه قلعة الارك من جـانب ، وبعض التلال من جانب آخر .

فزحفت اليه مقدمة المسلمين من المتطوعـــة تمهد للمعركة بسهامها . فما تدانوا من التل الذي عليه الفنس حتى تجـارى اليهم نحو ثمانية آلاف من كل فارس غارق في الحديد ، فـالتقتهم المطّوعة يساندها القلب والجناح الأيسر . فتعالى الصياح ، واستكت آذان الفضاء من وقع سنابك الخيـــل ، وتجاوب أصوات الأبواق والطبول . ثم استطال المسلمون فكسروا من حـــدة القشتاليين وردوهم على أعقابهم .

غير انهم ما عتموا ان جمعوا شملهم ، وجددوا الحمـلة عليهم ، فردوهم ثانية . ولكنهم كانوا ُعنُداً صلاباً ، فـلم تهن عزائمهم بعـد الردتين بل ضاعفوا قواهم ، واندفعوا ثالثة كالعاصف الجارف وقد أحنقتهم الخيبة ، وزادتهم حماسة واقداماً ، فـــاخترقوا صفوف العدو وتوغلوا في الجناح الأيسر فمزقوه ، وشتتوا جمعه فهلـك الوف من قبائل العرب والبربر ، غير الجنود النظـــامية ، ولم تتم خطـــة عبدالله بن صناديد إذ أشار بأن يتركوا الميسرة للاحتياط والامداد .

ثم عطف القشتاليون على القلب وهو مرتعش مذعور لانكسار

حائطه الشمالي ، فصدعوا جانبه ناشبين في أحشاء االوحدين ، يقلبون بعضها على بعض ، ويشطرونها أجزاء ، فتساقطت جثث القتلى أكداساً ، وغصت حناجر الأرض من ابتلاع الدماء . ولشد ما عظمت فجيعة الموحدين بالقائد الاعلى ابي يحيى بن أبي حفص ، تلقفته سيوف الاسبان بعد أن بلوا من سيفه أمر البلاء . وعندئذ علا التكبير من الجناح الأيمن ، وحملت العساكر الأندلسية وبعض بطون زناتة يتقدمهم القائد المجرب عبدالله بن صناديد ، فاقتحموا قلب الجيش القشتالي ، وحجزوا بينه وبين فرسانه الطاعنين في قلب الموحدين .

وكان الملك الفنس يتولى قيادته بنفسه ، ومعه عشرة آلاف فارس ، فيهم الداوية وفرسان قلعة رباح ، فتلقاهم ثابت الجنان يصابرهم على قلة عدده ، ويدفع تيارات أمواجهم المتهايجة . وفيما الأندلسيون يواثبون سفح التل ، والفنس يدافعهم عنه ، ووراءهم فرسان قشتالة يزعزعون قلب الموحدين ، بعدما شردوا الميسرة .

وفيما النصر يراوح بين الجانبين لا يدري له مستقراً ، إذا بالطبول تقرع من وراء الآكام ، والخليفة المنصور يطلع بحرسه المختار ، أمامه العلم الأبيض منقوشاً عليه : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، لا غالب إلا الله . » فينقض على فوارس قشتالة وهم يمعنون في القلب إرهاقاً ، فيلأم صدعه الدامي ، ويردهم

عنه مندحرين . فعاود الامل جنود الموحدين ، واشتدت سواعدهم بعد ارتخاء ، فساوروا أعــداءهم كالليوث مستبشرين بالنصر ، لا يبالون ما يكلفهم من الضحـايا هجومهم المجنون . فما زالوا بهم حتى حطموا شوكتهم ، فانهزموا شماطيط إلى سفح التل يلوذون بالفنس .

وأبى خليفة الموحدين ان يتصرم النهار قبل ان يحرز النصر كاملاً ، فمشى بالعدد الاوفر إلى التل يخترق قلبه ، ويساند قوات الاندلسيين ، فدافعت فرسان الداوية وقلعة رباح عن مليكها أمجـد دفاع ، فكانوا يتساقطون من حوله صرعى ، لا يحـدثون النفس بالفرار ، حتى لم يبق منهم إلا فضلة يسيرة لا تستطيـع زياداً ، فخشيت أن يفتك الاعداء بسيدها وهو مصرّ على الثبات لا يطيق براحاً ، فاكرهته على الانكفاء ، فانقذت حيـاتـه وكان بوده لو يبذلها سماحاً .

ثم اقتحم المسلمون حصن الارك ، فاستنزلوا أصحابه واستولوا عليه . وهاجموا قلعة رباح فامتلكوها وكان فرسانها قد تخلوا عنها . وانتهت المعركة بانكسار ساحق للاسبانيين .

يقول ابن خلدون ان المسيحيين خسروا في هذه الواقعة ثلاثين الف قتيل . أما ابن الاثير فيجعل القتلى ستة واربعين الفاً ومائة الف ، والاسرى ثلاثة عشر الفاً . ويقدر قتلى المسلمين بنحو عشرين الفاً .

وكانت الغنائم عظيمة جداً .

قال ابن خلكان : « وغنم المسلمون أموالهم حتى قيل ان النبي حصل لبيت المال من دروعهم الف درع . وأما الدواب على اختلاف أنواعها ، فلم يحصر لها عدد . ولم يسمع في بلاد الاندلس بكسرة مثلها . »

فمعركة الارك ، لا جرم ، ثلت عز قشتالة ، وهتكت حرمة سلطانها . وما كان الامراء المسيحيون يتوقعون لها هذه الكارثة الشنعاء ، وقد بلوا صولتها وجبروتها ، فوقعت هيبة الموحدين في نفوسهم ، وداخلهم الخوف على اماراتهم ، فأسرعت مملكتا لاون والنافار إلى محالفة الخليفة المنصور ، وهما في خذلها لالفنس الثامن ، وتاخرهما عن نجدته ، أوصلتاه إلى هذه النتيجة الفاجعة . يضاف الى ذلك ما لقي المسلمون من مساعدة الكونت بدرو أحد أبناء كاسترو ، فقد كان هذا الامير فاراً عن وطنه مع اعوانه ، ناقماً على قشتالة التي رفعت أسرة لارا باذلال أسرته ، فلم يتأثم ان يبيع أمته ويقدم سيفه للموحدين .

ثم ان الملك الفنس رأى ان يحذو حذو لاون والنافار فيسترضي المنصور ويلتمس منه الهدنة بعدما أبصر جيوش المسلمين تتابع الغزوات في ولاياته ، تتلف الزرع ، وتقطع الشجر ، وتبلغ أبواب

طليطلة ، وهو لا يجرؤ ان يخرج إلى لقائها ، بل يرى الخير ، من خوفه ، في الامتناع بقلاعه وحصونه . وقد رضي المنصور بمهادنته لانه كان مضطراً إلى مغادرة الجزيرة ليخمد ثورة لا يبرح يشعلها في افريقيا والمغرب بقايا المرابطين . فعاد إلى مراكش يصلح من شؤونها ، وامنت رياض الاندلس شر اسبانيا زمناً ، ولكنها ما نالت من نعم الاستقلال التي حاربت عليه الإمارات المرابطية المسيحية إلا شارة الخضوع لسيطرة الموحدين .

معركة العقاب

بين معركة الأرك ومعركة العقاب ، سبع عشرة من السنين ساقطت ورقات يومياتها عن أحداث وشؤون كانت بطبيعتها معلولاً للأولى ، وعلة للأخرى .

فان انتصار أمير الموحدين على قشتالة ، وما تلاه من خضوع الفنس الثامن لسيفه ، والتماسه الهدنة منه ، وإسراع ملكي لاون والنافار إلى محالفته وخطب وده ، مكن سلطانه في الأندلس ، وحرمته في النفوس ، وأتاح له أن يتفرغ إلى إصلاح فتوق مملكته ، وتأديب العصاة والثائرين دون أن يصرف النظر عن أمراء اسبانية ، وما في صدورهم من ضغائن يحفظها بعضهم لبعض .

فقد كان المنصور ، على علو همته ، وافر الذكاء ، بعيد النظر ،

لا يسقط عنه ان يستغل خلافهم لمنفعته وخير أمته ، وهو يعلم انه ما دام الشر معصوصباً بينهم ، لا يرتفع لهم صوت جهير ، ولا يفيىء عليهم ظل ممدود ، في بقاع يعمرها الاسلام . أفما يجدر به أن يحرّك فيهم ، من وراء حجاب ، لاعج العدوان ، فتنام الأندلس على أمن وسكينة ، وتشرق اسبانية المسيحية بدمها إلى يوم يوهنها النزف ، فترتمي متلاشية على أقدام المسلمين ؟

فلاون والنافار متعطشتان للانتقام من قشتالة وإذلالها لما تفرض عليهما من السيطرة ، فطبيعي أن تستهينا جانبها جزاء كسرتها ، فتستنزلاها إلى محاربتهما بعد أن تخللتا تخومها عاديتين بتحريض الموحدين ، ووعدهم بالمساعدة .

وذهب المنصور إلى أبعد في توسيع الخرق بين الأمراء المسيحيين ، فحاول أن يجعل حليفه ملك النافار تابعاً له ، على أن يزوّجه إحدى بناته .

وتقول الرواية الاسبانية ان شانجه السابع اغترّ بهذه المواعيد فقصد إلى مراكش بغية تحقيقها ، تواكبه كتيبة من الفرسان . بيد ان الرواية العربية لا تذكر شيئاً من خبر الزواج ، بل تقول ان ملك النافار جاء اشبيلية سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) ، ليزور الخليفة الناصر بن المنصور . ومهما يكن من أمر الزيارة وزمنها ومكانها ،

فان المصاهرة لم تربط أواصرها بين الأميرين ، فرجع شانجـــه إلى مملكته فارغ الفؤاد ، وقد علم ان الزواج من أمـــيرة موحدية يدعوه إلى الإسلام ، وباسلامــــه لا يطمئن له عرش النافار .

على ان هذه الجهود التي بذلها المنصور لتمكين سلطـــانه ، وإضعاف ملوك اسبانية ، لم تلبث ان تراخت عزائمها بموته سنـة ١١٩٩ م (٥٩٥ هـ) وقيام ولده محمد أبي عبدالله الناصر . فإن هـذا الأمير مع شجاعته ، لم تكن له مواهب أبيه ، وصلابة عوده ، فاسلم ارادته الى حاجبه أبي سعيد بن جامع ، فورطه في مزالق لا تنبىء عن أمانة الوزير واخلاصه .

وكان هم الخليفـــة الجديد ان يترسم أباه في ضبط الولايات الأندلسية ، وإرهاق ملوك اسبانية مستثمراً شقاقهم ، غـير انـه لم يتمكن من الالتفات إلى عدوة أرونة إلا بعد أن دفع خطر المرابطين عن افريقية ، وأزال بقية دولتهم في الجزائر الشرقية (Baléares) (١٢٠٨ م) .

كان البابا اينوسان الثالث قد استطـــاع ، في تلك الأثناء ، بسلطانه الديني ، أن يصلح بين الأمراء الاسبانيين إلى حين ، ويؤلف قلوبهم على محاربة المسلمين .

فنشط الفنس الثامن ملك قشتالة إلى غزو الأندلس (١٢٠٩ م) فأوغل فيها باطشاً فاتكاً . ثم أغار عليها ثانية (١٢١٠ م) فانتسف كورة جيّان (Jaên) وبياسة (Baêza) واندوجار (Andujar) وعاد في المرتين بجلائل السبايا والغنائم .

فعندئذ نادى الخليفة الناصر بالجهاد ، وقد راعه تغلب العدو على كثير من الحصون الأندلسية ، فجمع الجموع وحشد العساكر ، حتى بلغت تعبئته ستمائة الف فارس وراجل ، فعبر المضيق إلى إشبيلية (١٢١١ م ــ ٦٠٧ هـ) يستعد للقتال . فنصح له حاجبه ابن جامع الا يتقدم في بلاد الفنس قبل ان يفتتح قلعة شلبطرة (Salvatierra) ، فساورها ثمانية أشهر ، وهي ممتنعة عليه لحصانتها ، فهلك دونها الوف ، وابن جامع يمنع الناصر أن يرفع الحصار عنها ، ويتجاوزها إلى طليطلة ، حتى أضرّ بها الجوع المرير فاعطت قيادها مكرهة ، بعدما انقذت اسبانية المسيحية بصبرها الطويل كما يقول جوزف أشباخ .

ذلك بانها أتاحت لألفنس الثامن أن يستصرخ دول اسبانية خصوصاً ، وأروبة عموماً لتجهيز حملة صليبية غربية تذكر المسلمين بحملات الصليبيين في الشرق . فقد ازعجه ما انتهى اليه من أنباء قوات الموحدين ، وزحفها الجرار ، ولاح له الخطر المخوف ينقض على قشتالة ، بل على الامارات الاسبانية مجموعة ، وهيهات لا

يرجى دفعه عنها ، إلا إذا تظاهرت عليه وتناست أحقادها ، وخير لها أن تستنجد أبناء ملتها في الغرب .

فبعث جرهارد مطران سقوبية (Ségavia) إلى رومة يلتمس من الحبر الأعظم أن يدعو الأمم المسيحية الى نصرة الصليب . وبعث المؤرخ ردريق مطران طليطلة وسواه من المطارنة الى فرنسا وما يليها من الدول الأروبية ليستثيروا الشعور الديني ، مبينين الخطر الذي يهدد النصرانية ، ودعا الأمراء الاسبانيين الى الاجتماع والمفاوضة ، ووضع الخطط التي ينبغي اتباعها .

فتكللت هذه المساعي بالنجاح المأمول ، ولبت أروبة دعوة الكرسي الرسولي ، ونداء الأساقفة المتحمس ، واقتنع ملوك اسبانية بضرورة الاتحاد . فما طال الأمد حتى بدأت الوفود تتلاحق الى طليطلة من مختلف الأمصار الاروبية ولا سيا فرنسا ، حاملين شارة الصليب دليل الذياد عن الدين ، يتقدمهم كبار الأحبار يستحثونهم ، ويوقدون الحمية في الصدور .

يقول جوزف أشباخ ، ان جيش الوافدين بلغ في اوائل حزيران ١٢١٢ م اكثر من عشرة آلاف فارس ، ومائة الف راجل ، فيه من القوامس ما يقدر بالفين ، اضف اليه ما ارسلت فرنسا وايطاليا من المال والمؤن والسلاح .

وأما الجيوش الأسبانية ، فأول من قدم منهـا جيش أرغون يقوده عاهله بدرو الثاني ، وفيه طبقة مختـارة من الكماة كجماعـة الداوية (فرسان الهيكل) . وتتـابعت بعده الفيالق من لاون وجيليقية والـبرتغال ، حتى فاضت طليطلة وأرباضهـا بالعساكر المنتشرة ، والخيام المنتصبة ، والخيل والعتـاد . ثم زحفت هـذه القوى العظيمة طالبة قلعة رباح ، وفرسان هـذه القلعـة يلتهبون حماسة لاسترجاعها .

وكان فيها حامية من الموحدين على رأسهـا القـائد يوسف بن قادس ، فهاجمتها الجيوش المسيحية دفعة واحدة ، فـاستولت على المدينة دون القلعة . فخشي ابن قادس مغبـة الحصار اذا افتتحت القلعة عنوة ، وهي لا محالة ساقطة في أيدي العدو ، فمن العبث ان تحاول قلتها مقاومة الكثرة . فآثر ان ينقذ حاميتهـا من الهلاك بالاستسلام ، اذ لا ينفع الدفـاع فتيلاً . فبعث الى ملك قشتالة رسولاً يفـاوضه من قبله ، مشترطـاً أن تخرج الحامية بسلاحهـا مأمونة .

فرفض الارغونيون ووفود المحاربـين هذا الشرط ، وطلبـوا متابعة الحصار ، فاضطر ابن قادس ان يرضى بتجريد الحـامية ، فغادرت القلعة بعد أن أخذت الأمان على نفوسها ، وتولى الفرسان الاسبانيون حراستها مخافة ان يفتك بها جند الوافدين لأنهم كانوا

يريدون قتالها ، وقد اغضبهم تأمينها . فسار بها ابن قادس إلى الخليفة الناصر ، فاطلعه على ما قام به من التدابير لحقن دماء المسلمين حيث لا يفيد بذلها .

ولكن ابن جامع أبى الا أن ينزل القصاص بالقائد الحكيم ، فاغرى الناصر به متهماً اياه بالتقصير والخيانة ، فقتل المسكين وطابت نفس الحاجب الماكر . فاستاء الناس لهذا الحادث ولا سيا الاندلسيون ، وكانوا يكرهون ابن جامع لتكرار مكايده . فأبدوا نفورهم من عمل الناصر ، وهم انما جاؤوا للحرب متثاقلين ، ساخطين على الموحدين كما سخطوا من قبل على المرابطين .

كيف لا وما زالوا يشعرون بضياع حقوقهم شعورهم بالأمس . أفتراهم يحسنون القتال ، ويثبتون للضرب والطعان ، وفي الصدور حرازات وشهوات لا يسكّنها إلا انخذال الموحدين ، لعل الاستقلال اليهم يعود ؟ ومثل هذه الحالة النفسية ، في جيش يتأهب للكفاح ، ينذر ، ولا بد ، بخطب جليل .

وكذلك العساكر المسيحية لم تسلم من التصدع على اثر استنزال الحامية من قلعة رباح مأمونة ، فان وفود الفرنجة ما لبثوا ان جاهروا بامتعاضهم من الاسبانيين ، فقفلوا راجعين الى اوطانهم متهمين ملك قشتاله بأنه استأثر بنفائس القلعة وأموالها . وقيل

ان عدد الذين رجعوا يبلغ خمسين الفاً من مـــائة الف . الا ان انفصالهم عن الجيش ، قبل المعركة ، كان أخف ضرراً ممـــا لو انفصلوا في أثنائها ، وأوقعوا خللاً فجائيـاً ، يصعب تلافيه ، في ترتيب الصفوف ، وتنظيم أجزائها .

فقد استطاع الاسبانيون بعد رجوع هؤلاء المحاربين أن يجمعوا أنفسهم ، ويدلفوا بقدم ثابتة إلى حصن الارك ، ولهم فيه أوجـع الذكريات ، فيفتتحوه بيسر مستبشرين . وفيما هم يتقدمون إلى لقاء الناصر ، وافاهم شانجه ملك النافار بجيشه ، فرأب الخلل الذي أحدثه إياب الفرنجة المتطّوعين .

روى المستشرق جوزف أشباخ ، ان النـــاصر بقي يتحامى اصطلاء المعركة على ضخامة جيشه ، خوفاً من المحاربين الصليبيين لأن شجـــاعة فرسان الفرنجة طارت شهرتها من الشرق إلى الغرب ، فلما بلغه انهم انفصلوا عن الاسبانيـين ، ورجعوا إلى بلادهم ، زالت وساوسه ووطن النية على طلب القتـال ، والسير الى العدو .

وكان الاسبانيون قد نفذوا إلى جبل الشارات (Sierra Morena) في ١٢ حزيران ، وامتلكوا ، على بعض قممه ، قلعة للموحدين ، فبـــادر الناصر ، فعبر الوادي الكبير إلى الموضع المعروف

بالعقاب [1] (Las Navas de Tolosa) وسد بجيشه منافذ جبل الشارات ، فتأزم موقف المسيحيين في شعافه ، إذ أصبحوا متعذراً عليهم هبوط السهل لملاقاة الموحدين ، فهم مضطرون الى أحد أمرين : إما البقاء وتعريض النفس للجوع والعطش ، واما الرحيل حيث يتحدث الناس عنهم بالهزيمة بعد أن حشدوا قوات الممالك الاسبانية .

وفصّل المستشرق جوزف أشباخ هذه المعركة تفصيلاً دقيقاً رأينا أن نستند اليه في وصفها وذكر أحوالها . فان ملوك الاسبان بعدما وقفوا حائرين بين اللبث والقفول ، وا نس الثامن أشدهم عناداً وكرهاً للتقهقر والرجوع ، تمكنوا من الانحدار إلى السهل بطريق خفي أرشدهم اليه بعض الرعاة ، فسار أمامهم دليلاً حتى بلغ بهم مسلكاً صالحاً يُنزل منه إلى سهل ابدة (Ubeda) . فاعتبر المسيحيون هذا الراعي رسولاً من لدن الله . وانتقلت جيوشهم من الجبل الى السهل دون ان ينتبه المسلمون لحركاتهم ، ذلك بأن الملوك الثلاثة ظلوا في القلعة لا يغادرونها حتى تم انتقال العساكر .

---

(١) قد تكون العقاب جمعاً يعني عقاب الجبل مفردها عقبة ، وقد تكون مفرداً بمعنى الطائر المعروف الذي يحتل القمم العالية ، يعزز ذلك ان روض القرطاس يسمي المكان بحصن العقبان

فلما خلا منهم جبـــل الشارات ظن الموحدون انهم احمدوا الفرار ، وضجروا من البقاء . ولكن ما عتموا ان أبصروا معسكرهم في السهل المقـابل ، فعلموا انهم خدعوا ، ولم يفطنـوا لانتقـال العدو ، فتركوه يحتل مكاناً أفضل من مكانهم ، يشرف عليهم من الربى العالية . بيد ان الناصر كان معتـداً بعظمة جيشه ، فلم يبال هذا التبدل في الموقف ، واعتقد ان النصارى لا يصبرون طويلاً على حربه ، وسيحتاجون إلى المؤن والذخائر في انقطاعهم عن قشتالة .

فبايدي عساكره الحصون الجبلية جميعاً ، ومنها القلعـة التي احتلها الاسبانيون في البدء على جبل الشارات . فما تلكأ ان باشر الدعوة للقتال ، فأبوها في اليوم الأول لمـا هم عليه من التعب ثم أبوها في اليوم التالي لأنه يوم أحد ، فكرهوا أن يحـاربوا فيـه . فلما كان صباح الاثنين في ١٦ تموز ١٢١٢ م (١٥ صفر ٦٠٩ هـ) ، أقام الأساقفة الصلاة ومنحوا الجنود البركة الرسولية ، والغفران الكامـل .

ثم جعـــل الملوك والقواد ينظمون جيوشهم ، فوقف الفنس الثامن ، ملك قشتالة في القلب يدير حركاته ، ويشرف منه على سائر الأقسام . ويتألف القلب من أربـع فرق ، إحداها فرقـة الجبليين القشتاليين يتقدمها القائد ذو هارو . والثانية فرقة فرسان

قلعة رباح ، وشنت ياقب[1] (Santiago) ، والداوية ، والاسبتارية[2] (Les Hospitaliers) ، يتقدمها الكونت ذو لارا . والثالثة فرقة فرسان قشتالة القديمة ، واشتوريش (Asturies) ، وبسكونية (Biscay) ، يتقدمها الكونت ردريق دياز . والرابعة الفرقة الاحتياطية من طليطلة ولاون يقودها الملك الفنس بنفسه .

وأما الجناح الأيمن فكان على رأسه شانجه السابع ، ملك النافار ، وفيه جنوده وفرسانه ، والكماة الفرنسيون الذين آثروا البقاء ، وفيه جنود جليقية والبرتغال يتقدمهم الأمير بدرو البرتغالي .

وينقسم الجناح الأيسر على أربع فرق تضم العساكر الارغونية وبعض رجّالة قشتالة ، يتقدمه بدرو الثاني ملك ارغون .

واصطفت عساكر المسلمين في سهل العقاب مقابل أبدة ،

---

(١) انشئت جماعة فرسان شنت ياقب في جليقية سنة ١١٦١ واقفة حياتها على الذود عن الدين ، وكان شعارها سيف القديس يعقوب دامياً في صورة الصليب .

(٢) نشأت جماعة الاسبتارية (فرسان المستشفى) في القدس على اثر نشوء الداوية . وساهمت في الحروب الصليبية ، وحماية القبر المقدس ، وقام لها في اسبانية فرع كما قام للداوية .

مقسومة على خمس فرق يتألف منها الخميس العرمرم . ففي المقدمة فرقة المطوعة ، وتجعلها الرواية العربية ستين الفاً ومائة الف . وفي الميمنة الجنود الاندلسية . وفي الميسرة البرابرة . وفي القلب جيش الموحدين . وفي المؤخرة الفرقة الاحتياطية من المغاربة والجيش النظامي . وبين القلب والمؤخرة نصبت للخليفة القبة التقليدية الحمراء التي ورثها المسلمون عن عرب الجاهلية ، وأمامها جواده مسرجاً ، يحيط بها حرسه الخاص من الفرسان والمشاة ، بأيديهم الرماح الممدودة ، ودون الوصول اليهم دائرة شدت من سلاسل الحديد .

وما انتهى تنظيم الجيوش حتى تجاوبت أصوات الطبول والأبواق من الجانبين ، فارتجت لها الربى والسهول ، وإذا الخليفة الناصر يخرج من قبته وعليه عباءة سوداء . فرفع المصحف بيد والسيف بالأخرى ، إشارة الهجوم ، فحملت المطّوعة خفيفة عنيفة تلطم القلب ، فالتقاها الجبليون وجماعات الفرسان بحملة معاكسة ألانت من حدتها .

ثم لم يلبثوا أن استطالوا عليها وأكثروا من الفتك بها فاضطروها الى الفرار ، فانهزمت أمامهم وهم يطاردونها بالحراب في اقفائها . فلما اقتربوا من القلب يبغونه ، صدمتهم قوى الموحدين النظامية ، فرأوا أمامهم جنوداً باسلة ، مجربة في الحروب ، مدربة أحسن

تدريب . وما طال الأمر حتى تمزقت جموعهم ، فتشتتوا عنهـــا منهزمين .

فرجحت كفـــة المسلمين ولاح لهم وامض النصر ، فهللوا مستبشرين . ولم يكن ملك قشتالة يتوقع هذا الفشل من القلب وفيه صيّانة الفروسية الاسبانية ، فطـار رشده ، واشتهت نفسه الموت ، فمشى الى المعركة يريد أن يخوضها بفرقته الاحتياطية ، فمنعـــه المطران ردريق والقوامس أن يغرر بحياته ، والتمسوا منــــه أن يكتفي بانعاش القلب المتدهور ، فأمده بنجدة مختارة يتقدمهـــا الاساقفة ، يحملون الرايات عليها صور الطفل الالهي وأمه البتول ، فاستثاروا بها حماسة الفرسان المنهزمين ، فعاد اليهم نشاطهم ، وأتاح لهم هذا المدد ان يلموا شعثهم المنتشر ، ويكروا ثانيـــة على جيش الموحدين ينقرون حبة قلبه ، ويرمقون دائرة السلاسل حيث الخليفة الناصر ، والقبة الحمراء .

ومن دون الدائرة اهوال تختطف عليها الأعمار ، فليس صدع القلب بالهين السهل ، وفيه نخبة الجيش النظامي . ووراء السلاســل عدد كثير من الحراس الأشاوس يحرسون القبة بغابة من عوامل الرماح . ولكن قد تجري الأقدار بما لا يتوقع الانسان ، فبينا فوارس قشتالة يصكون القلب ، والقلبُ ثابت لا يتحلحل ، اذا الجناح الأيمن يلتوي فجاة وينهزم الأندلسيون تاركين رفاقهم ، وكانوا ، كما علمنا ،

ناقمين على الموحدين يضمرون لهم الشر ، فلم يقاتلوا قتالهم المعهود في المعارك التي يصطلونها متحمسين . وهم كعادتهم متهورون في أعمالهم لا يفكرون تفكيراً صحيحاً في نتيجة ما يصنعون .

وما كادت الميمنة تتعطل حتى مشت الميسرة على أثرها فتقصف جناح البربر ، وبقي القلب عارياً من الجانبين يدافع الاسبانيين ويصابرهم ، وهؤلاء قد ازدادوا حمية واقداماً بعد تحطيم الجناحين ، فصدعوا القلب الجرىء وأوغلوا في أوساطه يقرعون دائرة السلاسل ، فجرت أمامها انهار من الدماء ، وتكدست حولها جثث القتلى تلالاً . الموحدون في القلب مخرّقة صفوفهم ، يستميتون مقاومة ودفاعاً .

والمغاربة في المؤخرة يقدمون لسد الثلمات غصاباً . والأحراس البيض والسود يطاعنون الخيل عن حرم القبة وحرم الخلافة : مشهد رائع تجلت فيه البطولة الاسلامية بأجمل معانيها ، تغالب اليأس ، والياس غالبها ، وترتجي الظفر وقد أشاح بوجهه عنها . أقبل الحظ على الاسبانيين ، وما كانوا دون اعدائهم جراءة وعناداً ، فشدوا عليهم ملحين ، يستعجلون النصر قبل هزيمة النهار ، لا يبالون في كسبه خسارة الأرواح ، فهم يشقون الصفوف ويتقدمون ، وهم يحيطون بدائرة السلاسل فيقتحمها الكونت ذو لارا واثباً بجماعات الفرسان ، ويقتحمها شانجه ملك النافار وبدرو ملك ارغون من

من اليمين والشمال ، فانهارت قوى الدفاع من كل جانب ، واستمات الحراس على غير جدوى وفي القبة الحمراء سيد الموحدين ، قاعد على درقته ، يتلقى الأنباء شيئاً بعد شيء ، متجلداً مكفهراً ، حتى جاءه النبأ الاسوأ : قتل ابنه واعتصم الجيش بالفرار ! فوقف النـــاصر حينئذ وقال : « صدق الرحمن وكذب الشيطان ! » ثم ركب حصانه المسرج ونجا بجماعة من أصحابه .

وكان المسيحيين ، وقد أخذتهم نشوة القلب ، أبو الا ان يعيدوا الطعن في أثر الهاربين ، فتعقبوهم تشفياً ، وانتقاماً ، فقتلوا منهم في أثناء الهزيمة اكثر مما قتلوا في أثناء المعركة .

/ وتقول الرواية العربية ان خسارة المسلمين كانت جسيمة جداً اذ لم ينج منهم سوى مائة الف من ستمائة الف مقاتل . في حين ان الرواية الاسبانية اكثر اعتدالاً في حسابها . فلا ترفع خسارة العدو الى أعظم من مائتي الف ، ولكنهـــا تجمع في الوقت نفسه على ان خسارة المسيحيين ليست بذات شأن .

وهذا صعب التصديق ، لأن الحرب في مرحلتها الأولى كانت دائرة على الاسبانيين ، ثم ان اقتحام السلاسل مـا تم لهم إلا بعـد تضحيات جليلة وبلاء كبير ، فغير معقول أن تكون خسائرهم لا تستحق الذكر كما يزعم الرواة الاسبانيون .

بيد انها تبدو ضئيلة إذا قيست بخسائر أعدائهم ، لأن فشل العساكر الاسلامية لم يقع على صورة عادية مألوفة ، فقد تراجعت صفوفهم وتمزقت اشتاتاً قبل ان تمنى بالانكسار ، فنالها من التقتيل في ذعرها وتبددها شيء عظيم ، وحقت عليها الهزيمة مع ان قواتها تبلغ ضعفي قوات المسيحيين ، وجيش الموحدين النظامي لا يفوقه جيش في بسالته وتدريبه .

فلا غرو أن يجعل النصارى ظفرهم مستمداً من الله ، فتنشأ عندهم أسطورة دينية يثبتها بعض المؤرخين ، تقول بأنه ظهر في السماء ، قبيل المعركة ، صليب ساطع النور ، وتحتفل طليطلة كل سنة في ١٦ حزيران بعيد « انتصار الصليب » ، مع ان المراجع الوثيقة لا تذكر هذه المعجزة ، ولا ذكرها الفنس الثامن في روايته لأخبار المعركة .

على ان انكسار المسلمين ، وان بدا غريباً في ظاهره ، لا يلبث ان يصبح طبيعياً اذا نظرنا الى العوامل التي أحاطت به . وأهمها تخاذل الجيش الأندلسي وانكفاؤه في أوائل المعركة حيث تصدعت الميمنة ، ثم تأثرتها الميسرة بفشل البرابرة وقلة ثباتهم امام شانجه السابع واجناد فرنسا والبرتغال والنافار . فاختل بذلك قلب الموحدين واشتد عليه الضغط من الامام والجانبين .

ويروي ابن خلدون حادثاً آخر له أثر فعّال في هزيمة الموحدين ، وهو أن صاحب لاون ، ويسميه مرة ليهوج ، ومرة البيوج ، قد مكر بالخليفة الناصر ، فقدم عليه فداخله ، وأظهر النصح ، فبذل الخليفة له أموالاً ، فلما كانت وقعة العقاب غدر الاسباني به ، وكرّ عليه يقاتله برجاله ، بدلاً من ان يناصره كما وعد .

غير اننا لا ندري من أراد ابن خلدون بصاحب لاون ، لأن الاسمين اللذين ذكرهما بعيدان في لفظهما عن اسم الفنس (ملك لاون) واسم أخيه شانجه (Sancho) الذي كان يحارب في صفوف المسيحيين يوم العقاب . أما الرواية الاسبانية فلم تشر إلى هذا الحادث وإنما قالت ان الفنس التاسع ملك لاون لم يحضر بنفسه الحرب لخلاف بينه وبين ملك قشتالة على بعض الحدود ، فاكتفى بأن يبعث اخاه شانجه مكانه .

فاذا صحت رواية ابن خلدون ، فان الناصر لا يعذر في اتكاله على مواعيد الأمير الاسباني دون ان يحتاط لأضرارها ، متوقعاً الكذب والخداع فيها . وكذلك كان قصير الرأي في استسلامه لنصائح ابن جامع ، إذ حبس جيوشه ثمانية أشهر على حصار شلبطرة بدلاً من أن يقودها إلى طليطلة فيسحق مملكة قشتالة قبل أن يتمكن الفنس الثامن من جمع كلمة الأمراء المسيحيين على مساعدته ،

والاستفادة من نشاط الأحبار ودعوتهم إلى الائتلاف تحت راية الصليب .

ان زوال إمارة قشتالة ، وهي أعظم دولة في اسبانية ، يفضي ، لا جرم ، إلى انهيار سائر الإمارات الاسبانية ، الواحدة تلو الأخرى . فان القوات التي حشدها صاحب مراكش لمحاربة الاسبانيين جعل منها أضخم جيش عرفته القرون الوسطى . ولو أحسن الحيلة والتدبير لكان من الممكن ألا يقف في فتوحه عند الولايات الأندلسية التي غنمها المسيحيون وضموها إلى ممالكهم ، بل يتخطاها إلى الأراضي الاسبانية فيبسط عليها سلطانه .

ويلام ، وهو القائد الأعلى ، لغفلته عن حركة العدو وانتقاله خفية من جبل الشارات ، حتى استطاع أن ينفذ الى أبدة ، ويحتل في رباها مواقع تفضل مواقع المسلمين . ورأينا الناصر يدعوه الى الحرب ، فيأباها في اليوم الأول والثاني من وصوله طلباً للراحة . ولا يجرؤ الناصر على مهاجمته ، مع علمه بتعبه ، لمناعة روابيه .

ويؤخذ على الموحدين ، ما يؤخذ على المرابطين من سياسة الاستئثار بالحكم والنفوذ في الأندلس ، فأساؤوا إلى أبنائها ، وحركوا الضغينة في نفوسهم ، فقدموا معهم الى الحرب وهم

مرصدون لمكروههم . فكان الجيش الاسلامي ، دون الجيش المسيحي نشاطاً وائتلافاً وحماسة للدين ، فدارت عليه معركة العقـــاب بشؤم الطالع ، فمحقت قواه الجبارة ، وأضعفت سلطان الموحدين فمالت بملكهم إلى الغروب ، وكانت للمسلمين نـذيراً بزوال كلمتهم عن الاندلس ، وللمسيحيين بشيراً بانقشاع خطر الاسلام عن اسبانيا جمعـاء .

يوم قرطبة

بدأت مأتم القواعد الاندلسية بسقوط طليطلة (١٠٨٥ م) ، ثم بسقوط سرقسطة (١١١٨ م) . وبعدهما استخذت بطليوس للملك لاون (١٢٣٠ م) . واليوم دور قرطبة ام العواصم ، وحاضنة الاندلسيين في الغرب ، تخط الطريق لسقوط بلنسية (١٢٣٨ م) ، واشبيلية (١٢٤٨ م) ، إلى ان يحين مأتم غرناطة آخر معقل عربي في اسبانيا المسلمة ، فيغني الشاعر الاندلسي مرثاته الاخيرة ، يبكي بها نعيم الفردوس المفقود .

وجاء دور قرطبة ، بعد ان مكثت خمسة قرون وربع قرن في حوزة الاسلام ، ترتد المسيحية عن أبوابها ، وأمام حصونها تنحل عزائم الاسبانيين . شهدت عز عبد الرحمن الناصر والحاجب المنصور ، فكانت كالعروس ، حيناً بعد حين ، تُجلى لترف في زينتها

لنصر جديد . ما أكثر أعراس قرطبة ، وابهج أفراحها ! الملوك تأتيها خاضعة ، واليها ترسل الهدايا خاطبة ودها . قوافل السبايا والغنائم معروضة في أسواقها ، يكاد لا ينقطع النداء عليها .

قرطبة دار العلوم ، ومعهد الفنون والصنائع ، حرم الجامع الكبير ذي السواري ، والدة الزهراء ذات القصور والحدائق ، تشع أنوارها على أروبة في دياجير القرون الوسطى ، هي الآن في مأتم بعد عرس كما قال البحتري في الايوان .

زالت عنها كلمة الموحدين بعد ان بات سلطانهم يتهاوى اثر موقعة العقاب ، وران عليها سلطان محمد بن هود ، من أعقاب امراء سرقسطة السالفين ، يضم اليه معها مُرسية (Murcie) ، وجيّان ، ومـاردة (Mérida) ، وبطليوس ، متوسلاً بنقمة الاندلسيين على الموحدين ، منادياً بكفرهم ، داعياً إلى مقاتلتهم قتال الكفار ، وتخليص الاندلس من طغيانهم .

وتلقب بالمتوكل على الله ، ولبس السواد شعار العباسيين ، معترفاً بخلافتهم ، راجعاً بامارته اليهم ، ليسترضي جمهور المسلمين بعد خلعه خلافة المغاربة أهل التوحيد . فنجحت سياسته ، واقبل على مبايعته وطاعته أكثر الولايات الاندلسية .

ولكنه كان مضطراً ، مع مغالبته القوى الموحدية في دفاعها عن بقية سلطانها ، الى مقاومة الامراء المسيحيين ، وهم لا يفترون عن مناصبة الاندلس والافساد فيها . فلم يطق منع الفنس التاسع ملك لاون ان يفتح بطليوس ومـاردة وغيرهما من المدن والحصون . الا انه تمكن من الايقاع بالموحدين ، يساعده على ذلك ما بينهم من شقاق ، إذ كان يتنازع الخلافة اميران منهم ، احدهما المامون من ولد يعقوب المنصور ، والآخر المعتصم بالله يحيى بن محمد الناصر .

كان ابن هود يناجز المامون ، ويعين عليه المعتصم احياناً ، حتى استطاع ان يستلب من يده حكم الاندلس بلداً بعد بلد ، وحصن غرناطة في الجملة (١٢٣٠ م) . فالجأه الى استعانة النصارى ، فعل المرابطين والامويين من قبل . فصار لدى خليفة الموحدين اثنا عشر الفاً من مرتزقة القشتاليين لحماية مراكش ورد المعتصم عنها . ونزل المامون لملك قشتالة ، مقابل هذا المدد ، عن بعض الحصون المتاخمة ورضي بأن تبنى كنيسة في مراكش ، وان يؤذن للنصارى بقرع النواقيس . ووعد بأن يدفع عنهم كل مساءة في مملكته ، وإذا أسلم نصراني لا يُقبل اسلامه ، وانما يقبل المسلم اذا ما احب ان يتنصر .

غير ان الحامية القشتالية لم تقو على منع المعتصم من افتتاح

مراكش ، وتهديم الكنيسة التي بنيت فيهـا ، وتقتيل النصارى ونهب أموالهم . وكان المأمون يومئذ في الاندلس ، وليس بيـده من مدنها الكبرى غير اشبيلية ، فعبر الزقاق يريد انقاذ عاصمة المغرب ، فلم يكتب له التوفيق في محـاربة المعتصم ، فمات فجأة (١١٣٢ م) ، وبويع بعده ابنـه أبو محمد عبد الواحد ، فتلقب بالرشيد . وتابع مساورة المعتصم ، الى ان توفي هذا بفـاس (١٢٣٦ م) .

وانقطع ملك الموحدين ، على اثر وفاة المأمون ، عن سائر الولايات الاندلسية خلا اشبيلية وما اليها . فعاد سلطان محمد بن هود يشعل مالقة (**Malaga**) والمرية (**Alméria**) وغرناطة وقرطبة ومرسية ، ينافسه سلطان بني الاحمر في ارجونـة (**Arjona**) ووادي آش (**Guadix**) وبيّاسة (**Baéza**) وجيّان (**Jaén**) .

وبنو الاحمر قبيلة عربية ترفع نسبها الى الخزرج ، وعميدها محمد بن يوسف النصري . فاتفق هذا مع الاسبانيين على ان يمدوه بجيش لقتال ابن هود ، وان ينزل لهم عن بسائط الاندلس اذا استتب أمره فيها . فاغتنم هؤلاء الفرصة ، مستفيدين من خلاف الامراء المسلمين ، وانتفاض بعضهم على بعض ، فحشدوا جيوشهم ، وراح جايم (**Jayme**) ملك أرغون يعيث في امـارة بلنسية ،

وفردينان ملك قشتالة ولاون يخبط بعساكره الى قرطبة . وكان هذا قد بلغ من القوة شيئاً عظيماً ، اذ تمكن ان يجمع قشتالة ولاون مملكة واحدة بعد تنابذهما ، لارتباط نسبه بمليكهما ، وانتقال ارثهما اليه .

ذلك انه عندما توفي الفنس النبيل صاحب قشتالة ، صار الملك بعده الى ولده هنري ، وكان قاصراً ، فتولت الوصاية عليه اخته برنجاريا . ثم توفي سنة ١٢١٧ فانتقل العرش اليها عملاً بوصية والدها . وكانت تعلم ان القشتاليين يكرهون حكم النساء ، فلم تشا ان تترك الملك مزعزعاً .

وكان لها اولاد من زوجها الفنس التاسع ملك لاون ، وقد طلقها هذا نزولاً عند امر البابا لما بينهما من قرابة مانعة ، الا ان الاولاد اعتبروا شرعيين . فاستدعت ابنها الاكبر فردينان وتنازلت له عن العرش ، فاغتبط القشتاليون لصنيعها ، وبايعوا الملك الجديد وقدموا له الطاعة (١٢١٧ م) . ولما توفي الفنس التاسع ملك لاون (١٢٣٠ م) تحول عرشه الى ولده فردينان الثالث ، فاتحدت قشتالة ولاون وزال ما بينهما من شقاق وخصام .

وخفق لواء الملك الجديد على دولتين قويتين ، تنضم اليهما امارات استرامادورة وجيليقية واشتوريش . فأصبح خطره عظيماً في غاراته على الاندلس الاسلامية ، واتجاه انظاره الى ام عواصمها

قرطبة ، بعدمـــا تم له الاستيلاء على حصن ابدة (Ubéda)
(١٢٣٣ م) .

وكان المتوكل بن هود يزحف يومئذ إلى غرناطة ليحارب منافسه ابن الأحمر ، فلم يفت الاسبانيين الذين كانوا في ابدة ان ينتهزوا الفرصة ، وقد علموا من الأسرى المسلمين ان قرطبة قليلة أسباب الدفاع ، وان افتتاحها أمر ميسور . فأدلجت منهم كوكبة صغيرة ، يسترها ظلام الليل ، ويخفي حركاتها انهمار المطر ، حتى بلغوا الضاحية الشرقية من عاصمة المروانيين .

وأرشدهم الأسرى الخائنون إلى المواقع التي يصلح منها الصعود إلى السور . فنصبت السلالم ، وتسلق الجدران جماعة من الفرسان الأباسل ، وكانوا قد استمالوا بعض حراس الأبراج بالمال ، فكتموا أمرهم عن الآخرين ، وأوهموهم ، عندما سمعوا خفق أقدامهم ، انهم سرية آتية للتفتيش ، فخدعوهم بذلك ، ومكنوا أعداءهم من دخول أحد الأبراج ، فامتلكوه وقتلوا حراسه .

ثم انحدروا إلى باب قريب ، ففتحوه لرفاقهم ، فتسللوا منه إلى أحياء الضاحية يفتكون بالسكان الآمنين فتكاً ذريعاً ، حتى تنفس الصبح وانتشر الخبر ، فثارت الحامية في وجه المغامرين فقاتلتهم حانقة ، وطردتهم من الشوارع ، وألجأتهم إلى التحصن بالبرج الذي سقط في أيديهم .

فعلموا ان محاولة افتتاح مدينة عظيمة كقرطبة ، بعدد قليل من الرجال ، ضرب من الجنون ، فهي من نفسها وحدها في جحفل لجب ، على حد تعبير أبي تمام . فارسلوا يستنجدون قائد منطقة قرطبة الفابيريز ذا كاسترو . وبعثوا رسولاً إلى الملك فرديناند في لاون يسالونه الاسراع بالمجيء .

وما كاد يصل الرسول إلى القائد الاسباني ، حتى حف اليهم بما استطاع جمعه من حاميات الحصون والقلاع ، فأدركهم على عجل ، وثبّت مقـــامهم في البرج يردون عنه المهاجمـين ، ويشرفون على قسم من الضاحيــــة ، إلى أن تأتيهم نجدة الملك وجيشه ...

ولم يكن فرديناند يتوقع هذا التوفيق العجيب في قرطبة بكوكبة من الفرسان ، فبادر اليها بثلاثين فارساً ، بعدمـــا أصدر أوامر بحشد العساكر من المدن والقرى ، واستدعاء جماعات الفرسان المنظمة ، وان يتبعه الحشد دون إبطاء .

ثم سارع بفرسانه الثلاثين إلى قرطبة ، فابتهج الجند لرؤيته ، واشتدت ظهورهم في مقاومة المسلمين . فأحس هؤلاء الخطر المهدد ، وتيقنوا انه إذا لم يتداركهم ابن هود بقواته ، دارت عليهم الليالي ، وآضت قاعدة الملوك في حوزة الأعداء . فطيروا الرسل الى المتوكل يستحثونه لانقاذهم قبل فوات الأوان .

ولولا خور العزيمة ، وعقم في الرأي لكان بوسعه ان يتدارك العاصمة ، ويمنع استخذاءها . فالظاهر ان الانكسارات التي مني بها في محاربة المسيحيين ، وما ناله خصوصاً من فردينان الثالث ، أضعف همته ، وأوقع هيبة الاسبانيين في نفسه ، فلم يجرؤ على تلبية صوت قرطبة ، قبل أن يتبين قوة أعدائه ، ومبلغ ما جردوا لها من العساكر ، مع ان الموقف حرج ، فلا يحسن بأميرها ان يتركها تلاقي وبالها ، وهو قريب منها ، ولديه جيش كبير يستطيع الدفاع عنها .

ولم يقتصر على تلكؤه الذميم ، بل قاده قصر الحيلة ، وسوء طالع الأندلس ، إلى أن يعهد في استطلاع أحوال العدو الى فارس جليقي اسمه سوارز ، كان الملك فردينان قد نفاه عن قشتالة ، فجاء برجاله إلى المتوكل ، وجعل سيفه في خدمته ، شانه شأن كثير من الفرسان المسيحيين والمسلمين ، إذا خرجوا من بلادهم ناقمين على أمرائهم .

على ان هذا الفارس الجليقي لم يكن لينسى ان المهمة التي ندبه اليها ابن هود بكل سذاجة ، يتوقف عليها خذلان ملته ، وأبناء قومه ، فغلت في صدره عصبية الدين والوطن ، ورأى الحال مؤاتية لاسترضاء مليكه والرجوع الى أرضه . فوعد المتوكل بالخبر اليقين ، وسار إلى فردينان ، فاطلعه على واقع الأمر ، وطلب اليه ان يضاعف نيران الاحراس ليلاً ليوهم المسلمين بكثرة جيشه ، واتساع

المساحة التي يشغلها في نزوله .

ثم عاد الى ابن هود ، وطفق يبالغ له في وصف قوة العدو ، وحسن سلاحه ، والخطر الذي ينتظره اذا حدثته النفس بلقائه . وأراه بعينه اتساع نيران الحراسة وامتداد لظاها . فاستطير المتوكل ، وداخله الذعر ، فخام ولم يجسر على الاقدام ، ونسي انه مسؤول عن مصير ام المدائن .

وفيما هو على هذا الحال من الاضطراب جاءه رسول من أبي جميل زيّان أمير بلنسية ، يستغيثه على جايم ملك أرغون . وكان قد أناخ عليه بقواته ، فآثر ابن هود أن يدلف الى غوث بلنسية لعله ينقذها من الارغونيين ، فيضمها الى مملكته ، ويتقوى بها ، ثم يرتد الى قرطبة ، فيخرج منها القشتاليين .

ولكن التقادير جرت بغير ما في الحسبان ، فإنه ما كاد يبلغ المرّية حتى اغتيل فمات خنقاً ، ولم تنج بلنسية من يد ملك ارغون ، وتُركت قرطبة وحيدة ، تدافع بشهامة هجمات الأعداء ، وتلقى الهلاك باسلة لا تسلم إباءها للخنوع ، الى ان خاب املها من المتوكل ، وانقطع عنها رجاء كل نجدة ، فعلمت ان المقاومة أصبحت لا تجدي فتيلاً ، وانما هي انتحار نيس غير ، فافضل ان تفاوض العدو ، فعساها تنال منه شروطاً شريفة مقبولة .

بيد ان العدو كان شديد التعنت والاستكبار ، خصوصاً بعد ان صار النصر ملك يديه، وزال خطر المتوكل عنه . فأبى الا ان يسوم الاندلسيين ظلامة ، فاعطاهم الامان على نفوسهم دون املاكهم وأموالهم . فاضطر أهل قرطبة الى القبول مكرهين ، وفتحت المدينة الكبرى أبوابها للظافرين ، فدخلها فردينان الثالث ملك قشتالة ، لاون بفوارسه على اصوات الأبواق والطبول في ٢٩ حزيران سنة ١٢٣٦ م (٢٣ شوال ٦٣٣ هـ) ، بعد ان كابدت حصار ستة أشهر متواليات ، فسقطت بها أعظم قاعدة اندلسية في ايدي المسيحيين ، وخرج المسلمون منهـا منكسي الرؤوس ، متخلين عن أموالهم ، هاربين الى البقية الباقية من المدن الاسلامية في الاندلس .

ومشى الفاتحون الى المسجد الكبير يرتلون أناشيد الشكر ، فحولوه كنيسة ، ورفعوا الصليب عليه ، واقاموا فيه الصلوات والقداديس . وجيء بأجراس شنت ياقب الى فردينان ، وكانت لم تزل محفوظة من عهد الحاجب المنصور حين غزا مدينة القديس يعقوب (٩٩٧ م)[١] . ودمرها ، وانتزع اجراس كنيستها الشهيرة ، واجبر الاسرى المسيحيين ان يحملوها على عواتقهم الى قرطبة .

---

(١) راجع معارك العرب في الشرق والغرب ، ص ٣٣٠ .

فامر فردينان ان تعاد هذه الاجراس الى كنيسة شنت ياقب ، محمولة على اكتاف الاسرى المسلمين . فنقلت الى موطنها بعد غربة طويلة ، وحررت بعد أسر امتد نحو ثلاثين ومائتين من السنين . فخرجت شنت ياقب للقاء أجراسها تحيط بحامليها مهللة مبتهجة ؛ كما خرجت قرطبة بالأمس البعيد تستقبل هذه الاجراس على اكتاف أصحابها ؛ وهي نشوى من خمرة الظفر العابق . فأعاد التاريخ نفسه ؛ ولكن بصورة معكوسة . فسبحان مغير الاحوال .

فاجعة غرناطة

لم يبق في أيدي المسلمين من الاندلس العربية ؛ بعد انهيار دوله الموحدين ، ومقتل محمد بن هود . وسقوط قرطبة وبلنسية واشبيلية وسواها من المدن والقلاع ، الا مملكة غرناطة . ويشمل حكمها كورة البيرة (Elvira) ومنها قطر لوشه (Loja) على نهر غرناطة المعروف بنهر شنيل (Xenil) .

ومن اعمالها وادي آش (Guadix) والمنكّب (Almunécar) وجبال البُشُرات (Alpujarras) وبسطة (Baza) . واشهر مدنها التجارية على ساحل البحر مالقة (Malaga) والمرية (Almméria) .

ومع ان هذه الامارة صغيرة بمساحتها ، فقد تسنى لها أن

ترزق الحياة مدة مائتين وخمسين سنة ، على ما كان يحدق بها من خطر الدول المسيحية .

ذلك بأن الملوك الاسبانيين كانوا يشغلون عنها بمحاربة بعضهم لبعض : حروب كادت تستغرق النصف الثاني والنصف الاول من القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، لاسيما نضال قشتالة وارغون .

ثم انهم تعودوا ان ينتفعوا من أموال المسلمين ، فكانوا يجدون لذة في ضرب الجزية عليهم واعتبارهم من اتباعهم ، كما كان الأمراء المسلمون يجدون هذه اللذة من قبل ، فقيضوا لغرناطة عمراً مديداً ليمتعوا النفس باستصفائها والاشراف عليها .

اضف الى ذلك ان موقعها الطبيعي وما فيها من الحصون والقلاع والابراج ، يضمن لها ارهاق غزاتها . وهي على ضيق ارضها مكتظة بالسكان لان معظم المسلمين الذين هاجروا من الولايات الاندلسية التي استردها المسيحيون . لجأوا اليها واتخذوها مقراً . فلقيت فيهم عدداً عظيماً من المحاربين الاشداء يدافعون عنها الاسبانيين بحمية واستبسال .

فإذا تكالب العدو عليها وأحست الضنك استصرخت سلاطين المغرب ، وفي مقدمتهم بنو مرين ، فيجيزون اليها جيوشهم لرد

العاديات عن ارباضها .

فظلت هذه المملكة الصغيرة بمأمن من الكارثة العظمى لا تخشى شرها . حتى تم الاتحاد بين قشتالة وارغون سنة ١٤٦٩ ، فتزوج فردينـــان الخامس ايزابيلا الكاثوليكية . واجتمعت دولتـان قويتان على امارة بني الاحمر تصليانها الحرب العوان طوال عشر سنين .

ورافق ذلك تضعضع في احوال غرناطة من خلافها الداخلي . وانقسامها احزاباً تحترب وتتصارع . ويفزع بعضهـا الى الملوك المسيحيين لمقاومة بعض . فمهـدوا السبيل للنيـل منهم . وتغلب العدو على مدنهم وقلاعهم . فقد بات قصر الحمراء ملعباً لدسائس النساء ومكايدهن . فاشعل الثورات الاهلية ليستفيد منهـــا الاسبان .

وكان من سوء الطالع أن يتولى أمر غرناطة السلطان أبو الحسن علي بن الأحمر ، رجل لذات وشهوات ، فأهمل رعـــاية الجيش ، وأقدم على قتل كبار القواد ليأمن انتقاضهم . فـــتراخت القوى العسكرية في الدولة ، وقل خطر حاميات الثغور .

ولم يقتصر على هذا بل سلم زمام الأحكام الى وزيره ، وقعد عن الجهاد ، حاسباً ان النصارى لا يغزونه ، ولا تنقضي بينهم الفتنة .

واحتجب في قصره عن الناس ليتفرغ لنسائه وملاهيه .

فانكر الخاصة والعامة ذلك منه ، وكثرت المظـالم والمغارم على حد تعبير المقرّي . فإذا الثورة تتمخض في شعبه ، فتنتقض مالقة على حكمه ، وتبايع أخاه أبا عبدالله محمـداً الملقب بالزغـل ، فتنشب الفتنة بين الأخوين مدة ، ثم يخضع الزغـــل لأخيه ، وينقضي الخـلاف ، ليقع بعـده خلاف جديد أشد منه وأنكر ، بـين الابن وأبيه .

وذلك ان ابا الحسن في تهافته على اللذة كان يكثر من التسري بالجواري ، ليطيب له الاستمتاع . فوقع على جارية اسبانية اسمهـا إيزابيلا ، فشغف بها شغفاً عظيماً ، واستولت على إرادته ، فحملته على ان يتزوجها ، واسلمت فسميت الثريا ، فأحلها المنزلة الأولى بين نسائه حتى انه قدمها على زوجه عـائشة ، وهي بنت عمـه السلطان ابي عبدالله الأيسر .

وشاء ان يجعل ولاية العهد لبعض أولادها ، فاشتعلت الغيرة في صدر عائشة ، وراحت تدس للثريا ، وتنصب لها أشراك مكايدها ، فانقسم خدام القصر على فئتين متنافرتين ، تميل الواحدة الى اولاد الحرة ، والأخرى إلى أولاد الجارية . والشعب خارج القصر يتذمر على الوزير لجوره واستبداده ، يطلب اقصاءه عن الحكم ، والسلطان

لا يلبي له طلباً .

ولم تكن هذه الأحداث لتخفى على ملكي قشتالة وارغون ، او يفوتهما استغلالها ، وهما في زواجهما واتحادهما ، قررا ان يزيلا باقي كلمة الاسلام عن اسبانية .

وكان السلطان أبو الحسن قد استفزهما للجهاد في اعتدائه على الزهراء سنة ١٤٧٨ ، وهي تابعة لملكة قشتالة ، فحرضت بعلها على تجريد حملة صليبية ، لا تنثني إلا باخراج المسلمين من الأندلس . فتم تجهيزها سنة ١٤٨٢ م (٨٨٧ هـ) فراحت توالي الغـــارات على مملكة غرناطة ، تفتتحهـــا بلداً اثر بلد ، وتستنزل الحصون أو تقذفها بالمدافع .

وفي هذه السنة فرت عـــائشة من الحمراء ، ومعها ولداها ابو عبدالله محمد وأبو الحجاج يوسف ، خوفاً من زوجها ان يفتـك بهم نزولاً على رغبة حظيتـــه الاسبانية . فقصدوا إلى وادي آش يستثيرون الشعب ، وهو في جملتـــه ناقم على أبي الحسن يمقت استهتاره وقعوده ، فمد اليهم يده وبايع أبا عبدالله خالعاً أباه . ثم قامت المرية وبسطة وغرناطة بدعوة السلطان الجديد ، فهرب أبو الحسن إلى مالقة ملتجئاً إلى أخيه الزغل ، فاعصوصب الشر بين حزب ابي عبدالله وحزب ابي الحسن ، وفيهم الثغريون (سكان

الثغر) وبنو سراج .

فقد انتصر الأولون لأبي الحسن ، والآخرون لأبي عبـدالله ، فكانوا يقتتلون في الشوارع والطرق حتى تركوا الفوضى منتشرة في البلاد . وتزعم الرواية العربية ان ابا عبـدالله نكب بني سراج وافناهم ، على ان المستشرقين أوغست مولر وكليان هيوار يضيفان هـذه النكبة ، ان صحت أخبـارهـا ، الى ابي الحسن ، لان بني سراج كانوا خصومه وانصار ولده ، فـلا يعقـل ان ينكبهم ابو عبدالله ، ولعل الرواية العربية تخلط بينه وبين عمه ابي عبـدالله الزغل . وعلى حوادث هـذه النكبة بنى شاتوبريان قصته : آخر بني سراج .

وما زالت الحرب دائرة بين الابن وأبيه حتى رجحت كفـة الولد ، فأقام سريره في غرناطة ، وأطاعتـه البلاد إلا مالقة والناحية الغربية .

وفي سنة ١٤٨٣ م (٨٨٨ هـ) قصد المسيحيون مـالقة وبلّش (Velez) في نحو ثمـانية آلاف . وكان السلطان أبو الحسن قـد أناخ على نواحي المنكّب لمقاتلة ولده ، فالتقاه أبو عبدالله في جند غرناطة والجهة الشرقية فهزمه ، في حين كان الزغل يقاوم الجيوش الأسبانية في مالقة ، ويردها خاسرة .

فلما بلغ أبا عبدالله ان عمه الزغل انتصر على الاسبانيين في مالقة ، أحب أن يكون له قسط من الجهاد الوطني والديني فحشد عساكره وخرج غازياً ، فتجمع عليه الاسبان في الجبال والأوعار ، فكسروه وأخذوه أسيراً بعد ان قتلوا من الجيش خلقاً عظيماً . فاجمع أمراء غرناطة وأعيان الاندلس على ارجاع والده ابي الحسن ، فذهبوا إلى مالقة وبايعوه .

وكان قد ذهب بصره ، على أثر مرض يشبه الصرع أصابه . فرفض أن يقوم بأعباء الملك وهو على هذه الحال ، وأشار عليهم بأن يبايعوا أخاه أبا عبدالله الزغل ، فبايعه الأندلسيون وقدموا له الطاعة . وانتقل أبو الحسن إلى المنكّب فاقام بها إلى ان مات .

وأغار المسيحيون سنة ١٤٨٥ م (٨٩٠ هـ) على غربي مالقة فدخل أهلها في طاعتهم . وحاصروا بعدها رندة (Ronda) فهدموا أسوارها بمدافعهم ، وما انفكّوا يضيّقون عليها حتى طلب أهلها الامان مستسلمين .

ثم ان فردينان رأى ان يضرب المسلمين بعضهم ببعض ، فيستفيد من شقاقهم وتحاربهم ، فبعث إلى السلطان ابي عبدالله ، وهو أسير عنده ، فاستقدمه وخلع عليه ، ووعده بأن يساعده

على خلع عمه، ويعيده إلى عرشه. ثم أطلق سراحه وأمده بالعساكر والمال، فثار يطلب الملك.

وجاء بلّش فاطاعه أهلها، ونادى الخبر الى غرناطة فمال الى مبايعته اهل البيّازين (Albaycin) وهو حي من أقدم احيـــاء غرناطة . قائم في اعاليها على تل منحدر يشرف على المدينة، بينـه وبين التل الذي عليه قصر الحمراء فرجة صخرية .

وفي البيازين قلعة حصينة تعرف بالقصبة القديمة. وكان أهل هذا الحي على جانب من الجهل، كما يصفهم صاحب نفح الطيب، فقاموا بدعوة أبي عبدالله، وتبعهم. بعض اهـــل غرناطة ، وهم يرجون الصلح مع المسيحيين على يد السلطان الأسير، لما رأوا من عطف القشتاليين عليه. فوقعت الفتنة بين المسلمين ورُجمت البيازين بالحجارة من القلعة.

ثم جاء السلطان ابو عبدالله إلى لوشة، فظنوا انه اتى لمصالحة عمه الزغل. واذا صاحب قشتالة وارغون يدهم لوشة بجيش عظـيم فيحاصرها. فخف اهل البيازين الى نصرة السلطان ابي عبـدالله، ولكنهم ما لبثوا ان تبين لهم ان السلطان كان على اتفاق مع الملك الاسباني، ففتحت لوشة أبوابها لفردينان (٨٩١ هـ) وهاجر اكثر اهلها الى غرناطة .

اما أبو عبدالله فبقي فيها مع الاسبانيين ، فأثبت بذلك شائعة مواطئته لهم . وحقيقة الأمر انه ما حالفهم الا لاعتقـــاده انهم سيكونون انصاره على عمه فيستعيد منـــه العرش وان المسلمين يأمنون اعتداءهم في ظل ملكه لارتباطه بالصداقـــة معهم ، خصوصاً بعدما وعده فردينـان بأن من يدخل في حكمـه فهو في أمـان تام .

وعلى ذلك نشط إلى بلش يدعو الناس لموالاته ويمنّيهم بصلح صحيح ، فـــأقبل عليه جمع غفير ممن رغبوا في السلامة وكره القتال ، وجاءه في الجملة أهل البيازين يدعونه إلى حيهم ، متجندين لنصرته والدفاع عنه ، فانتقل اليهم على حين غفـلة ، ونزل في القلعة فانقسمت غرناطة قسمين ، حزباً معه وحزبـــاً مع عمه نزيل الحمراء .

ولم يغفل ملكا قشتالة وارغون عن امداده بالجند والمـــال والقمح والبارود ، فشبت في غرناطة ثورة اهلية كثر فيها النهب والتقتيل .

وفيما كان السلطان الزغل يدعو الأجناد والقواد من أهـــل بسطة ووادي آش والمرّية والمنكب لمساعدته وطرد أبي عبدالله من البيازين ، بلغه ان الاسبانيين زحفوا إلى مـــالقة بجيش عظيم ،

ونزلوا على بلش يحاصرونها في آذار ١٤٥٧ م (ربيع الآخر ٨٩٢ هـ) فخف إلى نجدتها بما اجتمع لديه من وفود وادي آش وجبال البشرات ، فرأى العدو يواثبها براً وبحراً ، وقد أخذ بخناقها من جميع الجهات .

فوطّن النية على منازلته مهما كلف الأمر . وإذا نبأ يأتيه من غرناطة بأن العاصمة بايعت ابن اخيه أبا عبدالله ، وان هذا الأمير استولى على قصر الحمراء ، فانكسرت عزيمته ، وانهزم بجيشه قبل ان يلتحم مع الاسبانيين ، وسار الى وادي آش فنزلها وتحصن بها .

وما زال الاسبانيون يشددون الحصار على بلّش حتى طلب أهلها الامان ، ودانت لهم جميع البلاد بشرقي مالقة إلا جبل فارة (Gibralfars) حصن مالقة المنيع ، فانه لبث يدعو للزغل ويدافع الأعداء متمرداً ، ومالقة أعظم فرضة تجارية حربية على باب المضيق ، تأتيها الامدادات من المغرب ، تنزل بها ثم تنتقل الى غرناطة .

فكان من المعقول أن يوجه اليها فردينان حملته ويفرغ منها قبل مهاجمة العاصمة ليقطع الصلة بينها وبين العدوة المغربية . فسير اليها جيشاً برياً واسطولاً بحرياً يضربان عليها نطاقاً

عسيراً . فقاتل أهلها قتالاً مجيداً ، وسلط الحصن مدافعه على البر والبحر ، فمني الاسبانيون بخسائر جسيمة .

غير انهم لم يحجموا عنها ، ولا فتر لهم نشاط ، بل لبثوا يقتحمون اليها المخاطر حتى دخلوا أرباضها وضيقوا دائرة الحصار وصاروا يقذفون عليها قنابلهم من مسافات قريبة ، فيدمرون الحصون والمنازل .

فصبرت مالقة صبر الكرام على التقتيل والتخريب ، وانقطاع الأمل من مساعدة سلاطين المغرب الى ان فني ما عندها من الطعام وأكلت الخيل والحمير ، فعضها الجوع المرير ، وغلب عليها اليأس القاتل ، فاضطرت مكرهة الى الاستخذاء بعد منعتها ، فدخلها المسيحيون في آب ١٤٨٧ م (شعبان ٨٩٢ هـ) وسقط في أيديهم حصنها المريد .

وتابع فردينان غاراته كل سنة ، فكان يفتتح المدن والقلاع وهو يظهر الصداقة لأبي عبدالله صاحب الحمراء ، ويدعي مناصرته على عمه ومنافسه في الملك ، وانما وكده ان يعزل غرناطة عن جميع المدن والولايات الاسلامية ، فيسهل عليه امتلاكها اذا حاصرها ويحول دون وصول النجدات اليها .

ولا يخفى ما في هذه الخطة من دهاء وحسن تدبير . فلما

كانت سنة ١٤٨٩ م (٨٩٤ هـ) . نهد بجيشه إلى بسطة يريد انتزاعها من الزغل ، فحشد السلطان الجيوش من وادي آش والمرية والمنكّب والبشرات ، فوقعت بينهم معارك كثيرة كان النصر فيها للاسبانيين . وتضايق أهل بسطة من الحصار والجوع ، فطلبوا الأمان ، وخضع الزغل لفرديتان وبايع له على أن يبقى تحت طاعته .

فدخل الاسبان بسطة في كانون الأول ١٤٨٩ م (محرم ٨٩٥ هـ) وأقاموا في كل قلعة قائداً مسيحياً . ودانت لهم وادي آش والمنكب والمرية ، وتم لفردينان ما أراده ، ولم يبق خارجاً عن حكمه سوى غرناطة وقراها وجبال البشرات . فعندئذ تبدلت سياسته نحو صاحب الحمراء ، فاظهر الميل لأبي عبدالله الزغل ، ودعا الناس الى الالتفاف حوله ، وبذل المال لبعض القواد المسلمين فباعوه ضمائرهم ، وجعلوا رجالهم في خدمته توفيراً لرجاله .

فسقطت أمام وجهه جميع الحواجز التي كانت تعوق زحفه الى غرناطة ، فكتب الى صاحبها يستنزله عنها ، واعداً اياه بأن يضعه تحت حمايته ، ويعطيه مالاً جزيلاً . ولكنه لم ينتظر الجواب بل دلف اليه بعساكره لينجز الأمر سريعاً .

فجمع أبو عبدالله أعيان المدينة وقوادها ، ومندوبين من

عـــامة الشعب ، وأطلعه على كتاب فردينان ، طـالباً منهم أن يبدوا آراءهم في الجـواب عليـه ، فـــاما ان يرغبوا في الجهاد والدفاع عن دينهم واستقلالهم ، واما أن ينزلوا على حـكم المسيحيــين .

فاتفقوا باجمعهم على الجهاد المستميت . فأرسل الى فردينـــان يبلغه رفض طلبه والاستعداد لقتاله .

فمشى الملك الاسباني الى مرج غرناطة فاحتله بجيشه ، وبعث الى سكان العاصمة يهددهم بافساد زروعهم ، اذا أصروا على مخالفته ، فلم يجد عندهم غير الصلابة والاباء . فانتسف الزرع كله ، وهدم بعض الحصون ، الا انـــه أحجم عن ضرب الحصار لقلة في الذخيرة والجند ، وآثر ان يرتحل الى بلاده ، مرجئاً أمر غرناطـة ليوم آخر .

وما كاد يبتعد حتى عادت بعض الجهات الى طـــاعة صاحب الحمراء ومنها جبال البشرات . وكان الزغل قـــد استقر بالمرية ، فدلف اليه ابن اخيه بجملة من غرناطـــة ليسترد الأماكن التي سلمها للعدو ، فتلقاه عمـــه بجيش فيه قوات من النصارى الاسبانيين ، فنشبت بينهما معارك دامية لم يترجح النصر فيهـــا لأحـد منهما .

وفي أثنائها خرج فردينان بجيش انضم اليه المدجنون[1] والخانة والمرتدون[2] ، فقصد الى وادي آش وأجلى عنها المسلمين . فلما بلغ خبره السلطان الزغل ، خاف على نفسه لمصادقته الاسبانيين وهم اليوم ينفون أبناء ملته عن ديارهم ، فكره البقاء في الأندلس ، فعبر البحر الى وهران ، ثم الى تلمسان ، واستقر بها بعيداً عن عرشه وسلطانه .

وعاد ابو عبدالله الى غرناطة يتأهب للقاء العدو بعد ان اصبحت العاصمة الهدف الوحيد لأنظار ايزابلا وفردينان ، وهيهات ، لا يطمئن لها فتح ما دام المسلمون معتصمين بالحمراء . فيكفي ان يقع من الحوادث الداخلية ما يشغلهما حيناً عن الولايات المفتتحة حتى تنتقض عليهما ، وتعود منضمة الى غرناطة ، ناشدة حريتها واستقلالها ، فلا الفتح مكفولاً ولا النصر سالماً ، او يندك المعقل الأخير لدولة الاسلام في الأندلس .

وعلى هذا ، صمم العاهلان أن يضربا الضربة الحاسمة ما دام الزمان مؤاتياً ، فيأمنا من مفاجآت الغد . فنهضا الى حشد العساكر من قشتالة وارغون ولاون وجليقية واشتوريش وسواها ، فتم لهما

---

(١) هم المسلمون الذين يعيشون في بلاد النصارى ولهم عليهم حق الحماية والذمة .
(٢) المرتدون : النصارى الذين اسلموا ثم ارتدوا الى النصرانية .

جيش لهام ، فيه زهرة الفروسية الاسبانية ، يترأس أقسامه الأحبار والقوامس ، وتنتشر فوقه رايات الصليب والصور المقدسة ، ومعه من المؤن والمدافع والسلاح مقادير عظيمة تنذر بحرب ضروس لا هوادة فيها .

وكان فردينان وايزابـــلا يقودان هذه الجيوش بنفسيهما ، ويتعهدان سيرها ونزولها . فزحفا بها في آذار ١٤٩١ م (جمـادي الآخرة ٨٩٦ هـ) الى مرج غرناطة الجنوبي (La Véga) ونصبـا الآت الحصار على العاصمة ، وقذفا حصونها بالمدافع ، ولكنها كانت منيعة ، فلم يهن جانبها ولا تثلمت أبراجها .

فعلم الاسبانيون ان الحصار طويل لا ينقضي أمده الا بعنـاء شهور . فأمرت ايزابلا ببناء مدينة مقابل غرناطة تناوئها مـــدة الحرب الى ان تظفر الواحدة بالأخرى . وهذه الخطة اخذهـــا الاسبانيون عن العرب عندمـــا يطول الحصار . فبنيت المدينة وسميت شنتفي (Santa - Fé) اي الايمان المقدس ، فنزلتها العساكر الاسبانية مستظلة بحصونها ، فكان في ذلك بلاغ للغرناطيين بـأن هذه الحملة تختلف عن الغـــارات السابقة ، فما تنتهي باتلاف الزرع وامتلاك بعض الحصون .

فوطنوا النفس على الصبر والجـلاد ، ووقف القواد والاشراف

بجانب السلطان ابي عبدالله يشددون عزيمته، ويدعونه الى الثبات ، فصبرت غرناطة على الحصار وقصف المدافع ، رابطة الجـــأش ، عنيدة المراس .

غير ان الميرة عندها لم تكن تكفيها سوى مدة قصـــيرة ، والحصار الخانق يمنع الوارد اليها من الخارج ، وليس لها باب مفتوح الا من ناحية جبل شُلّير (Séerra Nıvada) الى البشرات تأتيها منه المؤونة رشحاً لوعورة المسالك . فكان الضيق يدفع اهلها حيناً بعد آخر الى ترك الاسوار والحصون لمنازلة العدو فتقع معـــارك دامية يستبسلون فيها مقاتلين قتال الضواري ، . فيسيل مرج غرناطة دماء ، ويكتسي بالجثث والهام .

وكانت ايزابلا تتعهد الجرحى الاسبانيين بنفسهـــا ، تؤاسيهم وتضمد كلومهم ، وتحث الاجناد على الصبر وحسن البلاء . فتوالت المعارك بين الفريقين رابية الخسائر ، والزاد والرجـال في غرناطة قليل ، والعدو وافر العدد والذخائر ، فلا بد ان يفضي الأمر الى معركة فاصلة تنكسر فيها شوكة الغرناطيين ، ويستطيل عليهم الاسبان بقواتهم الجرارة ، فيضطرونهم الى الانقباض وراء الأسوار لا يجرؤون بعدها على طلب القتال . فيعود الحصار بأثقاله ويشتـد الجوع على المسلمين ، فيزداد العدو طمعـاً فيهم ، ويفر من المدينة خلق الى جبال البشرات .

فدعا السلطان ابو عبدالله رجال الدولة وأهـــل المشورة ، يستطلع آراءهم فيا ينبغي عمله ، فاتفقوا على اسلام البلد حفاظاً على النفوس ان تهلك حيث لا يجدي الهلاك . فاختاروا وفداً من رؤساء الجند للمفاوضة ، فخرجوا الى معسكر الاسبانيين ، فـــاستقبلهم فردينان وايزابلا بجفاوة ، فعرضوا عليهما اسلام العـــاصمة على شروط فيها الامان للمسلمين . فقبل العاهلان دون تردد ان تفتح المدينة ابوابها صلحاً ، ووضعت معاهدة الاستسلام وهي تتضمن سبعة وستين شرطاً على قول المقري .

ومن النظر إلى هذه الشروط يتبين ان المسلمين فـــاوضوا أعدائهم مفاوضة الند للند لا مفاوضة المغلوب للغالب ، وان العاهلين الاسبانيين كانا متساهلين إلى حد بعيد تخلصـــاً من هذه الحرب الطويلة ، ووصولاً إلى الغاية التي يتوخيانها .

ولعل فردينان كان يضمر وراء هذا السخاء خطة معينة ينوي تنفيذها عندما يصبح أمر غرناطة في يده ، وتسرّح جنود المسلمين ، وتؤخذ منها قلاعها . فقد جـــاءت شروط المعاهدة في مصلحة المتكسرين اكثر منها في مصلحة الظافرين .

ولا يرجو مقهور ان ينال من قاهره شروطاً شريفة افضل منها تصون حرية الدين وحرية النفوس معـــاً . فهي تنص من

الناحية الدينيـة على انـه : لا يجوز للجنود المسيحيين أن يـدخلوا المساجد إلا باذن من الفقهاء ، وتبقى المساجد والاوقاف كما كانت . ولا يمنع مؤذن ولا مصلٍ ولا صائم عن أموره الدينية . وكل مسيحي يضحك منهم في أثناء إقامة شعائرهم يعاقب .

لا يقسر من اسلم من النصارى على الرجوع الى دينه ، وأما من تنصر من المسلمين فانه يوقف اياماً حتى يظهر حـاله ، ويُحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ، فإن أبى الرجوع الى الاسلام يترك على ما اراد .

وتنص من ناحية أخرى على حماية النفوس والعادات والمنـازل والأموال ، فلا يجوز للعساكر المسيحية ان تدخل بيوت المسلمين ولا تأخذ منها طيورها ومواشيها ، أو تقيم فيها الولائم والمراقص على كره من سكانها .

ولا يسمح للجنود الاسبانيين بأن يصعدوا إلى السور الذي يفصل القلعة عن البيّازين لئلا يستطلعوا على دور المسلمين . ولا تخترق القوات المسيحية مدينة غرناطة يوم دخول العـاهلين إلى الحمراء ، وإنما تسير في طريق منحرف خارج الأسوار مراعـاة لشعور الغرناطيين .

ومن هرب من اسارى المسلمين ودخل غرناطة فلا سبيل عليـه

لمالكه ولا لسواه . ولا يعاقب من قتل نصرانيـــاً أيام الحرب ولا ترد منه الأسلاب التي غنمها ، ولا يؤخذ أحد بذنب غـــيره . ويخيّر المسلم في البقـاء او في السفر إلى المغرب وافريقـــية ، فمن آثر البقاء ، ورضي ان يكون من رعايا صاحبي السمو الملكي ، يبقى له سكنه ومـاله وعقـــاره ، ولا يـؤدي من المغارم زيادة على مــــا كان يؤديه للأمراء المسلمين ، وترفع عنه جميع المغارم والمظالم المحدثة ، ويسير في بلاد النصارى آمنـــاً في نفسه وماله ، ولا يجعل علامة يعرف بهـــا كما يجعل اليهود والمدجّنون .

ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم لدى قضاتهم ، ولا يولى عليهم نصراني أو يهودي . ويحق للتجـــار المسلمين ان يسافروا ويعودوا متمتعين بالحرية والطمأنينة ، فيمكنهم ان يعبروا بتجاراتهم إلى افريقية كلها ، وان يتنقلوا في جميع الولايات الخاضعة لصاحبي السمو ، ولا يؤدون من المكوس زيادة على مـــا يؤديه التجـار المسيحيون .

ويجب ان تكون اسواق المسيحيين ومجـــازرهم منفصلة عن أسواق المسلمين ومجـــازرهم لكي لا يحصل اختلاط في البضائع واللحوم .

ويستقل المسلمون بمياههم وأنابيبهم ، فـــلا يحق للمسيحيين ان يشربوا منهـــا أو يغسلوا بها ثيابهم . وإن صاحبي السمو وقوادهما الأكارم يراعون المسلمين ، ويعاملونهم معاملة الأتباع الأوفيـاء .

أما من آثر الهجرة على البقاء فلا يمنع ، وتنقله إلى العـدوة الافريقية ، في مدة معينة ، مراكب صاحبي السمو ، ولا يلزمه إلا الكراء ، ويحق له ان يأخذ معـه جميـع أمواله : ذهبه وفضتـه وحلاه ، وبضاعته وسلاحه ، ما عدا الأسلحة النارية .

ومن يتأخر عن السفر في المدة المعينة ، يعطى عندما يسافر عشر ماله والكراء . واذا لم يطب المقام للمسلم الاندلسي في المغرب وافريقية ، وأحب العودة الى غرناطة ، يسمح له بذلك في مـــدة ثلاث سنوات من سفره ، ويحق له أن يتمتع بجميـع الذمم التي تنص عليها المعاهدة .

ويشترط العاهلان الاسبانيان مقابل ذلك ان ينتقل ابو عبدالله سلطان المسلمين بأهله وحرسه من الحمراء إلى البشرات ، وتكون سكناه بأندرش (Andaraxe) ، وان يُستوثق خمس مائة من أعيان غرناطة رهناً حذار الغدر والعصيان .

وخطّ فردينان وايزابلا اسميهما تحت هذا القسم :

« نؤكد ونقسم بإيماننا وكلامنا الملوكي اننا نحافظ ونأمر بالمحافظة على مضمون جميع ما هنا من كل شيء وكل جزء ، الآن وفيما بعد ، الآن وفي كل آن . »

وأبرم الشروط بعدهما أبو عبدالله وزعماء المسلمين ، فتوقفت الأعمال الحربية في كانون الأول سنة ١٤٩١ م (صفر ٨٩٧ هـ) . وفي اليوم الثاني من كانون الثاني ١٤٩٢ م (٢ ربيع الأول ٨٩٧ هـ) فتحت غرناطة أبوابها فدخلها صباحاً فردينان الخامس وإيزابلا الكاثوليكية بموكب حافل ، فسارا تواً الى الحمراء .

وكان قائد القلعة ينتظرهما على عتبة الباب فقدم لهما المفاتيح ، فسلماها للكونت تنديلا (Tendilla) وجعلاه قائداً عاماً لمملكة غرناطة . ثم رفع الصليب الفضي وعلم قشتالة على برج فيلة (La Vela) أعظم ابراج الحمراء ، واحتلت رجالة الجنود الاسبانية جميع الأسوار والبروج .

وكان السلطان أبو عبدالله قد غادر القلعة قبل دخولهما العاصمة فاجتاز ساحة الاسود كسيراً منخلع الفؤاد ، يسير مطرقاً الى منفاه وبجانبه أمه عائشة صامتة ، قاطبة ، والناس وقوف في الشوارع والشرف يشيعونه بانظارهم منقبضين ، من بين راحم وناقم ، حتى إذا انعطفت به الطريق ، وكادت الحمراء تتوارى عنه ، ارسل اليها

النظرة الأخيرة ، وهطلت عيناه بالدموع . فالتفتت اليه أمه وقالت له بمرارة الشامت المتالم :

إبكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً   لم تحافظ عليه مثل الرجال

ولا يزال هذا الموضع يسمى الى اليوم « زفرة المغربي » .

واقام أبو عبدالله باندرش الى سنة ١٤٩٢ م (٨٩٨ هـ) ، ثم عبر البحر الى المغرب ونزل بفاس فاتخذها مقراً حتى مات .

خلت غرناطة من ملوكها بني الأحمر ولكنهـا بقيت آهلة بالمسلمين ، يزاولون فيها أعمالهم مطمئنين الى عهد فردينان ، حاسبين ان الاسبان مقيمون عليه طويلاً لا ينقضون شروطه ، فيتسنى لهم مع الزمن ان يجددوا قواهم ، ويستـأنفوا جهادهم لاسترداد سابق عزهم وسلطانهم . فاذا كان ما نالهم من ذل وانكسار عقاباً سماوياً على آثام اقترفوها ، او اقترفها حكامهم وزعماؤهم ، فلن يتخلى الله عنهم ، فيأذن ببقائهم خـاضعين لحكم النصارى ، والنبوات التي يسمعونها من أفواه الذين يقال ان لهم زلفى عنـد الله . تبعث في نفوسهم أملاً حياً وتبشر بقرب الخلاص ، وانتهاء العقاب .

ومهما تكن شروط العهد سخية شريفة فهي لا تعدو ان تكون شروط الغالب على المغلوب ، تطـالعه أبداً بزوال دولته ، ووجوب خضوعه للمسيطر الغريب . وما تعودوا من قبل ان يخضعوا الا

لأبناء ملتهم، بل كانوا يتبرمون بحكم سلاطين المغرب ، ويعتبرونهم دخلاء عليهم ، مع انهم مسلمون ويتكلمون العربية ، فكيف يرضون حكم الاسبانيين وهم غرباء عنهم في الدين والجنس واللسان . فلماذا لا يسعون بكل ما لديهم من الوسائل لتحطيم هذا النير الثقيل ؟ فعهد فردينان قد ترك لهم الحرية في السفر الى الأمصار الافريقية ، لتعاطي التجارة ، فبوسعهم ان يتصلوا بسلاطينها ، ويحرضوهم على تجريد حملة قوية تنقذ الأندلس المسلمة .

وما يمنعهم ان يستنجدوا المماليك في مصر ، أو يفزعوا الى الدولة العثمانية وهي في فتوتها ونشاطها ، وابان مطامعها . ممالك اوروبة تداريها وتخشاها بعد ان واتاها الحظ ، فافتتحت القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وجعلتها قاعدة لها ، فجثمت على الشاطئين ، بيدها مفاتيح الشرق والغرب .

دولة مسلمة مكينة العقيدة ، تطمح الى الخلافة لتصبح باسم الشرع حامية الاسلام ، فلا بدع ان يجد الاندلسيون عندها عطفاً وتشجيعاً كما وجدوا عند سلاطين المغرب وافريقية ومصر ، فتصبح بعد ذلك شواطىء الأندلس غرضاً لغارات القرصان المسلمين يعيثون فيها وينشرون الذعر والاضطراب . فكانت هذه الغارات كافية لتحريك الأندلسيين مع انتظارهم القوة التي وعدت افريقية بارسالها ، وهم لا تنقصهم الشجاعة ، ولا العصبية الدينية ، ولا كره

الغريب البغيض . ومن جملة تساهل العهد معهم ان ترك لهم اسلحتهم فكانه أعدهم للقيام بالثورة ، ولاسيا سكان الجبال الوعرة كالبشرات .

ولم يكن المسلمون منحصرين في غرناطة وحدها ، بل ظلت سائر الولايات الاسبانية حافلة بهم بعدما استردها المسيحيون ، فان فردينان رأى من الخير ان يستبقيهم ويعطيهم ذمة المدجنين ، لئلا ينقص عدد السكان فتتأثر التجارة والزراعة . فوجود هؤلاء في قلب اسبانية أشبه شيء بقوة خفية مبثوثة تعتمد عليها غرناطة اذا هبت ثائرة . وغير مستصعب عليهم ان يتفاوضوا ويتفاهموا ليجمعوا أمرهم على خطة يضعونها ما دام التاجر الغرناطي يحق له كالتاجر الاسباني ، ان يتردد في مملكتي قشتالة وأرغون . فلم يمض على العهد بضع سنوات حتى أخذ الجبليون ينتقضون ويثورون ، وبدأت قشتالة تفكر بالغاء العهد او تعديل شروطه .

والظاهر ان أول فكرة خطرت لها حفاظاً على الأمن ، وتحقيقاً للوحدة القومية ، هي تنصير المسلمين وتعليمهم لغة البلاد وعاداتها لأن الاسبانيين اعتقدوا ان هذا الشعب الغريب لن يندمج فيهم ما دام متمسكاً بدينه وعاداته ولغته ، ولعل تساهلهم في شروط العهد كان ترغيباً له في الحكم الاسباني الى أن يتمكنوا من تنصيره أو تنصير أولاده على تمادي الزمن .

وقد عبر عن هذه الفكرة رئيس أساقفة غرناطة الدون فرناندو دو تالافيرا (Fernando de Talavera) فطلب عند وضع المعاهدة ان تحسن معاملة الغرناطيين ، وان يجعل التساهل أساساً لشروطها على امل ان يقبلوا الديانة المسيحية في المستقبل . وقال في ذلك كلمته المأثورة : « هؤلاء اولاد ينبغي ان نغذيهم باللبن . »

وقد كان من الطبيعي أن يُترك أمر تنصيرهم على عهدة الأيام والليالي ، الا ان الخوف من الثورات التي طفقت تهدد اسبانية ، والحملات التي ينتظر ان تأتيها من افريقية ، حمل فرديناند على اتخاذ تدابير قاسية في حد ذاتها ، فأصدر أمره سنة ١٤٩٩ م (٩٠٤ هـ) ، بتنصير المسلمين جميعاً ، وارجاع من اسلم من النصارى الى دينه القديم ، وكل من رفض التنصر يجبر على مهاجرة البلاد .

فأحدث هذا القرار اضطراباً عظيماً في غرناطة والبشرات ، وهب أهل البيازين في وجه الحكام فقتلوهم ، وكتبوا الى الملك الظاهر قنسو الثاني سلطان مصر مستغيثين ، فبعث هذا الى الملكين الاسبانيين يهددهما بالانتقام من المسيحيين الذين في أرضه ، فاضطرا الى أن يوفدا مرشد كاتدرائية غرناطة بطرس مارتير ليوضح له حقيقة الأمر ويطلعه على الرسائل التي تلقتها حكومة قشتالة من سلطات المدن البحرية في افريقية ، تؤكد فيها أن المبعدين لاقوا من الاسبانيين أحسن معاملة .

واستطاع العاهلان في الوقت نفسه أن يخمدا ثورة الجبليين ، ويكرها المسلمين على التنصر ، ولا سيما الفتيان والفتيات فان التنصر كان شاملاً فيهم . وآثر جماعة أن لا ينزلوا عن دينهم ، فرحلوا إلى المغرب في مدة ثلاثة أشهر تاركين أملاكهم للدولة .

قال صاحب نفح الطيب ، « وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم من التنصر ورغبوا في الثورة ، فاستأصلهم الاسبان سبياً وقتلاً ، ومنهم من خرجوا على الامان الى العدوة المغربية . »

ولكن فاجعة المسلمين المتنصرين (Morisques) لم تقف عند هذا الحد ، ذلك بأن العدد الأكبر منهم ظل يبطن الاسلام ويحافظ سراً على شعائره وتقاليده . قال المقري : « كان من أظهر التنصر من المسلمين ، وبقي على دينه خفية ، فشدد عليهم النصارى في البحث حتى انهم أحرقوا كثيراً بسبب ذلك ، ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلاً عن غيرها من الحديد ، وقامت لهم ثورات في بعض الجبال على غير طائل . »

فقد فهم الاسبانيون أخيراً ان تحويل شعب عن دينه جملة ، بطريق الاكراه ، عمل عقيم لا يؤدي إلى النتيجة المنشودة . ولم يجد نفعاً ديوان التنقيب (Inquisition) ما قام به من الفحص البليغ

عن هؤلاء المتنصرين في الظاهر ، ومن ضروب العقوبات السبربرية كالتعذيب والتحريق ، حتى كان عهد فيليب الثاني فاصدر قراراً (١٥٦٥ م) باخراج العرب المتنصرة من اسبانية كلها الا من حسن ايمانه ولم يلحقه شك في نصرانيته ، وفصل الأولاد الصغار عن آبائهم وأمهاتهم ، فوضعوا في المدارس تحت رقابة الحكومة ليتربوا تربية مسيحية خالصة .

غير انه لم يتم الجلاء إلا في زمن فيليب الثالث ، فأخرجوا اخراجاً عاماً سنة ١٦٠٩ م (١٠١٧ هـ) ، فخلت منهم ربوع الاندلس بعدما عمروها بحضارتهم زهاء ثمانية قرون ، وآضت اسبانية للاسبانيين .

المراجع

الكتب العربية

ابن الأثير : الكامل
ابن خلدون : كتاب العبر
ابن خلكان : وفيات الأعيان
المقري : نفح الطيب
ابن بسام : الذخيرة
ياقوت : معجم البلدان
البستاني : دائرة المعارف العربية
بطرس البستاني : ادباء العرب ، جزء : ٣

الكتب المنقولة

يوسف اشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين
(الترجمة العربية : لمحمد عبدالله عنان)

الكتب الفرنسية

DOZY, *Histoire des Musulmans d'Espagne*, 4 Vol. petit in — 8, 1861.

DOZY, *Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne*. Leyde — E. J. Brill 1881

Cl. HUART, *Histoire des Arabes*, Geuthner, Paris.

Louis BERTRAND, *Histoire d'Espagne*, Arthème Fayard, Paris.

E. LÉVI-PROVENÇAL, *Islam d'Occident*. Librairie Orientale et Américaine, Paris.

Georges MARÇAIS, *La Berbérie Musulmane*, Aubier, Paris.

J. BERAUD-VILLARS, *Les Touareg au pays du Cid*, Plon, Paris.

C. BROCKELMANN, *Histoire des Peuples et des Etats Islamiques*.
(Traduction française de M. Tazorout),
Payot, Paris.

فهرست

كتب للمؤلف

أدباء العرب :

١ – في الجاهلية وصدر الاسلام

٢ – في الأعصر العباسية

٣ – في الأندلس وعصر الانبعاث

٤ – منتقيات أدباء العرب في الأعصر العباسية

معارك العرب في الشرق والغرب

معارك العرب في الأندلس

الشعراء الفرسان

توزيع
دار الجيل
بيروت